سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية (1839-1914م) دراسة تاريخية

د. بان غانم احمد الصائغ
كلية العلوم السياسية
جامعة الموصل

القبول	الاستلام
2011 / 08 / 07	2011 / 05 / 10

Abstract

The most of the world state have been known, that include big and small minorities in social fabric, distinguish by it origin, culture and religion, rarely we can find state contain on one religion or language, also that finding the religious, doctrinal, or race minority can not be cause political problem or civil war, in social field, some searchers and thinkers have seen that some minorities has political activity but another is humble, in another word, some of them want to maintain on self-limited feeling specialty self- personality and another have tendency to social fusion - political inter home - society.

In Europe states, specially British, have gladded to exist minorities in Othmanean state, for chance to divide these state and making from these minorities eternity problem, religious Othmany toleration for minorities but they seek to autonomy from state. The Europeans plan had began toward this religious minorities when the European consuls started exploitation of weakness of Othmanean state and calling to overplus disown by citizen religious minorities, the matter reach to call increasing from some consuls pre annum, that lead to change the Othmanean nationality, because these the non-Muslim citizens in the same state, although the negative which consort with protection of minorities but this protection lead to essential change the situation of religious minorities Othmany social.

During 1839, Sultan Abd-AL- Majeed issued sultanas a statement (Khat –Sheriff coulnkh) including the declaration about equality between Muslim and non- Muslim, which means cancel the traditional situation Legitimate for non Moslems as free non-Moslems enjoying Moslems

anther satanic statement confirm the previous at 1856 its (khat – shareef hemaun) that give afull equality and religious freedom to non- Muslims citizens in othmenic state.

The development and increasing of minorities situation in othmenic state have lead to the Europe state specially British to exploit the Muslim and non-Muslim to serve them political, through raising feeling of wrong, fright and absent to the safety gains majority of Muslim Othmany during draft this minority and offer a promise to them for achievement the freedom, rights, and independence from Muslim Othmany state and forming state to them, this become true.

الملخص

تنبهت الدول الأوربية ولاسيما بريطانيا، إلى وجود أقليات في الدولة العثمانية، فاعتبرتها فرصة لتفتت بها الدولة، وتصنع من تلك الأقليات مشاكل أزلية. على الرغم من التسامح الديني العثماني للأقليات. الا انهم كانوا يطمحون إلى استقلالهم عن الدولة بدعم الدول الأوربية. وسعت إلى حصولها على حماية الأقليات، وعلى الرغم من السلبيات التي رافقت ممارسة حماية الأقليات في الدولة العثمانية، لكن هذه الحماية أدت إلى تغيير جوهري في وضعيتهم في المجتمع العثماني بسبب الإصلاحات التي أصدرتها الدولة العثمانية في المراسيم الإصلاحية.

لقد أدى تطور حالة الأقليات وتفاقمها في الدولة العثمانية، إلى سعي الدول الأوربية ولاسيما بريطانيا الى استغلال الأقليات غير المسلمة لخدمة سياستها، من خلال إثارة مشاعر الغبن او الخوف او عدم الأمان ضد الأكثرية العثمانية المسلمة، وذلك بتجنيد هذه الأقليات، وتقديم الوعود لهم بتحقيق أهدافهم بالحرية والحقوق والاستقلال عن الدولة العثمانية المسلمة وتشكيل دول لهم، وهذا ما حصل فعلا.

المقدمة

أن موضوع الأقليات وما يتعلق بحقوقهم وحرياتهم من المواضيع المهمة وتعد من القضايا التي كان لها تأثير على السياسية العثمانية، كما شكلت الدعاية المكثفة لمنحهم تلك الحقوق السياسية والامتيازات تحدياً حقيقياً للدولة العثمانية و تتضح الخطورة إذا تعرفنا على هذه الأقليات التي يراد لها أن تنال مطلق الحرية وهي أقليات دينية (نصرانية، يهودية، الايزيدية، صابئة).

لم تتنبه الدولة العثمانية إلى خطورة الدور الذي لعبته هذه الأقليات الدينية من خلال علاقتها وارتباطها بالدول الأوربية، اذ بدت أول الأمر ضعيفة في تأثيرها ضئيلة في حجمها، ثم ما لبثت ان تكرست وأصبحت حالة بارزة في الدولة العثمانية، بمعنى انها قفزت من حالة

هامشية الى حالة المركز والقطب في هذه السياسة، ولم تكن الاقليات غير المسلمة تحظى بهذا الدور لولا توفر الرعاية والحماية الاجنبية لها. ولا سيما النـصارى فـي الـدول البلقانيـة، واثارتهم ضد الدولة العثمانية ودعمهم حتى نالوا استقلالهم، اذ اسـتقلت رومانيـا وبلغاريـا وصربيا والبانيا واليونان، فضلاً عن دعم الغرب لليهود في الهجرة والاستيطان في فلـسطين وانشاء وطن قومي لهم.

يعود مبدأ حماية الأقليات إلى القرن السادس عشر عندما بدأت الدول الأوربية بفرض حمايتها على الأقليات النصرانية في أراضي الدولة العثمانية. فقـد مـنح الـسلطان سـليمان القانوني من باب التسامح لقب حامي الكاثوليكية في الديار الإسلامية لفرانسو الاول (1515-1547م) ملك فرنسا عام 1535م، وبهذا فتح باب الامتيازات الاجنبية، وهي البداية لما عرف فيما بعد بمشكلة الأقليات كما تضمنت معاهدة كوجي قنيارجي المتنفذة في عـام 1774 بـين روسيا والدولة العثمانية حقاً للروس يسمح ببناء كنيسة أرثوذكسية فـي حـي بـاي اوغلـو beyoglu الذي يسكنه الأجانب في استانبول، ويضمن حمايتها وحق تعيين ممثلين فيها. ومن خلال ذلك عدت روسيا ذلك الامتياز المحدود حقاً يمنحها صلاحية حماية جميع الأرثـوذكس في أرجاء الدولة العثمانية، ثم حق التدخل إذا ما رأت مـا يهـدد أوضـاعهم، وبـات علـى العثمانيين استشارة الروس فيما يتعلق بأية إجراءات تتعلق بالأقلية الأرثوذكسية. وهذا ما دفـع فرانسوا الأول للإعلان عن رغبته في ممارسة حق مشابه تجاه الأقلية الكاثوليكية في الدولـة العثمانية (المارونيين في لبنان). وطالبت بريطانيا بادعاء مماثل في حقها بحماية (الدروز في لبنان) واليهود في فلسطين والمسحيين النساطرة في ولايتي وان والموصل.سعياً منها للحصول على نصيبها من تركة الرجل المريض في حالة انهيار الدولة العثمانية.

ومن الاقليات غير المسلمة في الدولة العثمانية،التي سنتناولها في هذه الدراسة هـي: النصرانية واليهودية،لاسيما ان الاقليتين النصرانية واليهودية لها تأثير على الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية في الدولة.

يعد مصطلح (الأقليات) حديث العهد بالتداول بين المهتمين بهذا الشأن، ولا يزال الحوار فيه قائما في سبيل الانتهاء إلى مفاهيم بينة. وأصبح له بعد سياسي واجتماعي وقانوني، وذلك لما حدث في الواقع من اختلاط بين الأمم والشعوب. ويطلق مصطلح الأقليات في الغالب على المجموعات البشرية التي تعيش في مجتمع تكون فيه أقلية من حيث العدد، وتكون مختصة من بين سائر أفراد المجتمع الآخرين ببعض الخصوصيات الجامعة بينها، كأن تكون أقلية عرقية، أو ثقافية، أو لغوية، أو دينية. إذن فهذا المصطلح يشير إلى عنصرين في تحقق وصف الأقلية هما: القلة العددية لمجموعة ما تعيش في مجتمع أوسع، والتميز دون سائر ذلك المجتمع بخصوصيات أصلية في الثقافة أو في العرق. وفي تحديد مصطلح الأقليات النصرانية واليهودية المقصود في هذه الدراسة ربما تعترض بعض المشكلات، فاللفظ بظاهره حينما يندرج في المصطلح العام للأقليات يكون دالاً على مدلول

عددي، ومدلول تميز ثقافي؛ فيصبح المعنى المقصود بالأقليات النصرانية واليهودية: "تلك المجموعة من الناس التي تشترك في التدين بدين واحد، وتعيش أقلية في عددها ضمن مجتمع أغلبه لا يتدين بهذا الدين". لذا لامناص من استخدام مصطلح الاقلية في هذه الدراسة على النصارى واليهود في الدولة العثمانية الذي راج استخدامه بين الباحثين والكتاب لاسيما في الغرب، على اعتبار ان اليهود والنصارى كانوا اقلية عددية في الدولة العثمانية، فضلاً عن استخدام المصادر والمراجع لهذا المصطلح.

أما الاقليات غير المسلمة الاخرى فلم يكن لها تاثير كبير على الاوضـاع العثمانيـة بسبب قلة اعدادها او تجمعها في منطقة واحدة مثلاً الايزيدية (تنحصر مناطق سـكناهم فـي شمال شرق الموصل في الشيخان([1]) وشمال غرب الموصل في منطقة سنجار)([2]). والصابئة فقد ورد عددهم في النشرة العثمانية الرسمية (السالنامة) لعام 1898-1899 بالبصرة والعمارة والناصرية فقط نحو 3000 نسمة([3]).

المبحث الأول:

الأقلية

لم يعرف الفكر الإسلامي مصطلح الأقلية وكذلك الحـضاري والتـاريخي واللغـوي بدلالته الحديثة، لكن كلمة الاقلية تتضمنها مفردات اللغة ([4])، اذ تشير معاجم اللغة، الى الاقلية العددية، في مادة قلل التي اشتقت منها كلمة الاقلية، القلة دون الكثرة. والقلة خـلاف الكثـرة وقوم قليليون، أقلاء، قلل، قليليون ويكون ذلك في قلة العدد ورقة الجثة، وقوم قليل، والقليـل من الرجال، والقل من الرجال الخسيس الدين. ويقال قل بن قل اي لا يعرف هو وابوه، وقـدم علينا قلل من الناس اذا كانوا من قبائل شتى متفرقين([5]). والكلمة في القرآن الكريم تشير الـى النقص كقوله تعالى ((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن ا))([6]). وقوله تعالى ((ان هولاء لشرذمة قليلون))([7])، وفي موضع اخر للتعبير عن دلالة كمية تقابل الاكثر ((واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم))([8]) ولم يكن النقص فقط وارد في القران الكريم اذ ارتبط ايضاً بالكثرة بقلة العلم

[1] عبد الرزاق الحسني، اليزيديون أوعبدة الشيطان، (مطبعة الوفاق، صيدا، 1961).

[2] عباس العزاوي، اليزيدية،ط2،(مطبعة النهضة، بغداد، 1964).

يقدر تعداد الأيزيديين حالياً بما يتجاوز الخمسمائة ألف نسمة موزعين في العراق "سنجار، شيخان، زاخو، دهـوك"، بعشيقة، وفي سوريا قرابة 30 ألفاً، وفي تركيا ما يتجاوز 40 ألفاً، وفي أرمينيا قرابة 30 ألف نسمة، فـضلاً عـن وجود أكثر من ستة قرى أيزيدية في منطقة كرمنشاه بجنوب إيران ومركزهم الرئيس هو قرية كرمين، فضلاً عـن الجالية الأيزيدية المهاجرة الى ألمانيا، وهولندا، والسويد، وفرنسا .

[3] نقلاً عن رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراق، ط1، (منشورات لسان الصدق، 2005)، ص57.

[4] محمد عمارة، الاسلام والاقليات الماضي..والحاضر..والمستقبل،ط1،(مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2003)،ص8.

[5] ابن منظور، لسان العرب،ج5، ص ص 3726-3729

[6] البقرة، الاية 249.

[7] الشعراء، الاية 54

[8] الاعراف، الاية 86

والايمان كقوله تعالى ((ففسقت قلوبهم وكثير ممنهم فاسقون))([1]) وقوله تعالى ((ولكـن اكثـر الناس لا يشكرون))([2]) وقوله تعالى ((لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحـق كـارهون))([3]) ولاتعني القلة في القران الكريم على النقص والكثرة فقط وانما على التميز والسبق ايضا بقوله تعالى ((ثلة من الاولين وقليل من الاخرين))([4]). وقوله تعالى ((وقليل من عبادي الشكور))([5]) وقوله تعالى ((وما امن معه الاقليل))([6]).

وتشير كلمة الاقلية الى تجمع الاشتات المتفرقين من اصول عرقية متعددة، وهو مـا يشير اليه المصطلح بدلالته الحديثة. فالتعبير القرآني يستخدم القلة للتعبير عن النقص العـددي لكن لا يجعل من هذا النقص العددي مثاراً للاحتقار او مبرراً للتقليل من الشأن، بل الغالب ان القلة تستخدم في السياق القرآني للتعبير عن المدح والتقدير. وهذا ما يوكد التصور القرآني لا يجعل من المعيار العددي المجرد مقياساً لترتيب أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية متميزة باعتبار ان هذا التميز تعبير عن الحق الذي يمثله الإسلام. فتعبير القلة أو وصف جماعة بالقلة أو الكثرة هو وصف محايد حتى يأتي وصف يحدد طبيعة هذه القلة أو الكثرة، وهو ما يطلـق علية التعبير الوظيفي للعدد. وان استخدام مصطلح الاقلية للتعبير عن التعدد الثقافي أو العرقي لجماعة من البشر في مواجهة جماعة أخرى تعبر عن الأكثرية، أو تعبر عن التميز في سـلم الترابط الاجتماعي والسياسي، فالكلمة عربية وتم استخدامها سواء في اللغة أو فـي القـرآن الكريم لتعبر عن نفس الدلالة الحديثة ([7]). والمصطلح يحتاج تحديد وتعريف وعلـى النحـو التالي:

الأقلية هي مجموعة من سكان إقليم أو دولة تختلف عن الأغلبية في الانتماء الإثني أو القومي أو الديني أو المذهبي. وقد وجدت الأقليات بين أكثر الشعوب والأمم. ويعـود منـشأ الأقلية في الدولة إلى وجود مجموعات سكانية تعيش إلى جانب بعضها البعض فـي منطقـة واحدة، وتختلف في انتماءاتها القومية أو الدينية أو المذهبية عند تأسيس الدولة، اذ يجري ضم هذه المجموعات في كيان سياسي واحد، تصبح فيه بعض الجماعات أقليات مقارنة بالأغلبيـة المختلفة عنها([8]).

[1] الحديد، الاية 16

[2] البقرة، الاية 243

[3] الزخرف، الاية 78

[4] الواقعة الايتين 13و14

[5] سبأ، الاية 13

[6] هود، الاية 40

[7] كمال السعيد حبيب، الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهايـة الدولـة العثمانيـة (622-1908م)(1هـ-1325هـ)،(مكتبة مدبولي، القاهرة،2002)، ص ص 55-56

[8] عبد الوهاب الكيالي واخرون، موسوعة السياسة، ج1،ط4، (الموسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، 1999)، ص ص 244-245.

والأقلية من اهل الكتاب وفق المفهوم الاسلامي هم ((اهل الذمة))، فقد منحهم التشريع الإسلامي الحق في ممارسة حياتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية مكتفيـاً بـاداء المكلفين منهم بالجزية،مقابل توفير الحماية لهم، وكانوا يعاملون معاملة المسلمين، فقد سمح لهم بفتح المحاكم الخاصة تبعاً لاديانهم ومذاهبهم، وكان الولاة والامـراء يـشاركونهم اعيـادهم ومناسباتهم، ويكرمون اساقفتهم وكبرائهم([1]). امتثالاً لما جاء في النص القراني من الايات التي تأمر المسلمين بمعاملة اهل الذمة معاملة تسامح وأخاء، وكانت هذه الاوامر القرانية هي التـي اتخذها السلاطين العثمانيون منهاجاً في تعاملهم ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ((لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين))([2]) وقوله تعالى ((ومن اهل الكتاب من ان تامنه بقنطـار يـؤده اليـك))([3]) وقوله تعالى ((وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حـل لهـم))([4]). وفـي الحـديث الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من ظلم معاهداً، أو كلّفَـه فـوقَ طاقتـهِ فأنـا حجيجه يوم القيامه))([5])، وجمهور العلماء مجمعون على ان قتل المسلم للذمي يعد من الكبائر، ويظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم ((من قتلَ معاهداً لم يرح رائحةَ الجنّةِ،وإن ريحهـا ليُوجد مِن مسيرةِ أربعين عاماً))([6]). وقد اتخذت الدولة العثمانية من هذا الحديث منهاجاً لهـا، وعدت دمه وديته كدم ودية المسلم([7]). أما المعنى الاصطلاحي لحماية الأقليات فهو يشير إلى قيام إحدى الدول الكبرى التي لها أطماع في دولة ما، بإعلان مسؤوليتها عن أقلية تعيش داخل حدود الدولة المستهدفة فتضعها تحت "حمايتها"، أي تتدخل في شؤون الدولة التي تعيش الأقلية في كنفها بحجة الدفاع عن مصالح هذه الأقلية. وقد تكون هذه الأقلية دينية مثل (الكاثوليك في لبنان)، أو إثنية كـ(الدروز في لبنان وسوريا) أو عرقية دينية (الأرمن في الدولة العثمانيـة). وتهدف فكرة الحماية هذه إلى إقناع أعضاء أقلية ما بأن مـصالحها تختلـف عـن مـصالح محيطها، وأن أفضل وسيلة لحماية هذه المصالح هي التحالف مع الغرب الصديق أو مع دولة معينة- كروسيا القيصرية على سبيل المثال لاالحصر-، (عن طريق حماية الأقلية) بتحويلهـا إلى جماعة وظيفية تعمل لصالحه([8]).

والتفسير التاريخي لبروز مشكلة الأقليات واستمرارية وجودها يعود الـى المعطيـات الدينية والتاريخية والجغرافية والبشرية التي تميزت بها الدولة العثمانية، لذا آثـر الـسلاطين

[1] موفق بني المرجه،صحوة الرجل المريض، (مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر،الكويت،1984)،ص176.

[2] الممتحنة الاية 8.

[3] ال عمران الاية 75.

[4] المائدة الاية 5.

[5] السيد سابق، فقه السنه، بيروت 1996: 668/2.

[6] صحيح البخاري (3166) وابن ماجه(2686).

[7] هدى درويش،العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية،ج1، (دار القلم،دمشق،2002)، ص 153.

[8] عبد الوهاب المسيري، يهود العالم العربي وحركة الاستعمار، مجلة المعرفة، العدد الصادر في2004، ص 5.

العثمانين عدم التدخل بالعصبيات والمذاهب، والاكتفاء باعلان الولايات الولاء للدولة العثمانية، وقد كان التسامح العثماني هو النافذه التي دخل منها التـدخل الاجنبـي بتغذيتـة للخلافـات والصراعات المذهبية والطائفية...الخ لتبرير الحماية لهم ازاء تدهور الأوضاع فـي الدولـة العثمانية خلال القرن التاسع عشر، اذ ازداد تأثير الدول الأوربية وتـدخلاتها المباشـرة فـي أوضاع الأقليات ولاسيما النصرانية واليهودية منها بهدف إحراز المزيد من النفوذ والمكاسـب من تركة الرجل المريض([1]).

ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية فتحت ابوابها لآلاف الأسر المتعددة القوميـات والعرقيات والثقافات، وتشير الاحصاءات ان في عام 1478 م كان يعيش في استانبول 9517 أسرة مسلمة و5162 أسرة نصرانية و1647 أسرة يهودية ([2]). وفي بداية القرن السادس عشر كان يعيش في استانبول 80,000 أسرة يمثل المـسلمون منهـا 58,3% والنـصارى بنـسبة 31,61%، واليهود بنسبة 10,08% ([3]). وبسبب التسامح العثماني هاجرت اعداد كبيرة مـن اليهود من اسبانيا والبرتغال الى الدولة العثمانية فقد وصل عدد سكان الحـي اليهـودي فـي استانبول عام 1590 حوالي 20,000 ([4]).

وفي أدناه جدول يبين اعداد السكان بحسب الاديان في الدولة العثمانية وفق احصاءات عام1840([5]).

الدين	اوربا	اسيا	افريقيا	المجموع
مسلمون	4,550,000	12,650,000	3,80,000	21,000,000
الروم الارثذوكس والارمن	10,000,000	3،000,000	--------	13،000,000
الكاثوليك	640,000	260,000	-------	900,000
اليهود	70,000	80,000	-------	150,000
اديان اخرى	240,000	60,000	-------	300,000
المجموع	15,500,000	16,050,000	3,80,000	35,350,000

وفي الجدول ادناه الأجناس البشرية وأعدادها التي كانت تقطن الدولة العثمانية وفق إحصاءات عام 1840([6])

[1] المرجه، المصدر السابق، ص 179.

[2] درويش، المصدر السابق، ص 183.

[3] حبيب، المصدر السابق، ص310.

[4] احمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني،ط 2، (دار الشروق، القاهرة، 1992)، ص131.

[5] المصدر نفسه، ص461.

[6] المصدر نفسه،ص 462.

الاجناس البشرية	اوربا	اسيا	افريقيا	المجموع
الاتراك	2,100,000	10،700،000	--------	12،800،000
اليونانيون	1،000،000	1،000،000	--------	2،000،000
الارمن	400،000	2،000،000	--------	2،400،000
اليهود	70،000	80،000	--------	150،000
السلافيون	6،200،000	--------	--------	6،200،000
الرومانيون	4،000،000	--------	-------	4،000،000
الالبانيون	1،500،000	--------	--------	1،500،000
التتر	16،000	20،000	--------	36،000
العرب	--------	850،000	308،000	4،685،000
السريان والكلدان	--------	200،000	--------	200،000
الدروز	-------	80،000	-------	80،000
الاكراد	-------	1,000,000	-------	1،000،000
التركمان	--------	85،000	--------	85،000
الغجر	214،000	------	-------	214،000
المجموع	15،500،000	16,050,000	3،800،000	35,350,000

ومن خلال تتبع الإحصاءات المتعددة للسكان في الدولة العثمانية وفي مراحل زمنية متفاوته، نجد ان السمة الرئيسة للأساس الديمغرافي والاثني للدولة يتسم بالتنوع والتعدد الذي تتعـايش داخله الديانات الثلاث (الإسلام، النصرانية، اليهودية)، فضلاً عن التعدد الديني فهناك التعـدد القومي والمذهبي داخل الديانات الثلاث ([1]).

المبحث الثاني:

التعامل العثماني مع الأقليات

امتدت الدولة العثمانية الى مناطق واسعة، وكأي دولة تضم اقاليم متنوعة فضلاً عـن قوميات وعرقيات ومذاهب تواجه مشاكل عديدة، اهمها مشكلة التكامل او ما يطلق عليه بنـاء الاساس الاجتماعي للدولة، وعليها تقع مسؤلية تحقيق الانـدماج بـين القوميـات والمـذاهب والعرقيات التي تقع في الاقليم الجغرافي للدولة العثمانية، فضلاً عن التوظيف السياسي لتحقيق اهدافها العليا. وفي حقيقة الامر ان مشكلة الاندماج والتكامل القومي هي من الامـور الاكثـر اهمية من بين القضايا التي كانت تهم الدولة العثمانية، اذ مثلت هذه المـشكلة الاولويـة فـي الاستراتيجية العثمانية في السياستين الداخلية والخارجية منذ بداية تاسيسها حتى انهيارها بعـد

[1] مصطفى، المصدر السابق،ص311.

الحرب العالمية الاولى عام 1918،ففي المرحلة الاولى، كانت المشكلة التـي تواجـه الدولـة العثمانية هي ايجاد هوية عثمانية تعلو فوق جميع الهويات الفرعية للاجناس المكونـه للدولـة وتوظيفها سياسيا لصالح الاهداف النهائية لها. وفي المرحلة الثانية كانت المشكلة التي واجهتها هي كيفية منع التدخل الدولي بالشوون الداخلية العثمانية بحجـة حمايـة الاقليـات اوتحـسين اوضاعهم، ثم استخدامهم كاداة لاسقاطها. لذا فان عملية التكامل والاندماج احد اهم المشكلات التي واجهتها الدولة العثمانية، وكان لها تاثير كبير لافي توجيه سياسة الدولة فحسب بل فـي وجودها ايضاً ([1]).

لذا فان التعامل العثماني مع الاقليات الموجودة فيها قد سار وفق محـددات، اذ كـان للمحدد التاريخي – الاجتماعي دور واضح في التعامل العثماني مع الاقليـات، فمنـذ تمكـن الاتراك العثمانين من السيطرة على الاناضول والمناطق الاسيوية وتوجهـت نحـو اوربـا، واعتنقوا الاسلام، واحتواء الدولة العثمانية على قوميات وعرقيات وطوائف متعددة كما اسلفنا، كذلك بناء المدن والمراكز التجارية والصناعية كقونية وقيصرية وسيواس... الخ لم يكن من قبل العثمانيين لوحدهم بل شارك في عملية البناء مختلف مكونات الدولة من مـسلمين وغيـر مسلمين، وعلى الرغم من بناء احياء خاصة لاتباع كل ديانة كحي غلطة في استانبول لليهود، ومع ذلك تعايش المسلمون وغير المسلمين في المدن العثمانية اذ تعلم غيـر الأتـراك اللغـة التركية، فضلاً عن ان المصاهرة بين القوميات والأديان الأخرى كان امراً عادياً([2]).

فالدولة العثمانية هي التنظيم السياسي الوحيد الذي اعترف رسمياً بالاديـان الـسماوية الثلاث، واوجد نظامها السياسي تعايشاً سلمياً يسوده الانسجام، فقد بلغ عـدد القوميـات فيهـا حوالي ستين قومية، وكان لهذه القوميات دوراً في بناء دولة قومية حديثة. أو في اثارة مشاكل الأقليات التي استعصى حلها على الحكومات الحديثة الا انها تمكنت من ايجاد حلول لها([3]).

أن المجتمع الذي قامت على أساسه الدولة العثمانية كان مجتمعاً متعدداً، ومـن غيـر الجائز أن يقوم المجتمع بدون الاعتراف بالتعددية بما لا يتعارض واهداف الامة. اذ تمكنـت الدولة من تحويل هذه المكونات الى عناصر فاعلة أعطت للنظـام الـسياسي العثمـاني قـوة وحيوية مكنته من الاستمرار والامتداد والفتح. ولم يكن هناك فصل بين المجتمع والدولة بـل كانا متداخلان الى الحد الذي لا يمكن الفصل بين الدولة والمجتمع أي لا يوجـد تعـارض أو صدام وعندما حدث ذلك كانت الدولة في طريقها الى الانهيار([4]). وكان المحـدد الثقـافي –

[1] حبيب، المصدر السابق، ص206. نصري مسرة، في مستقبل الوحدة العربية، الاعتراف بالولاءات التحتية وشرعيتها عامل توحيد ام انقسام، المستقبل العربي، العدد 119، كانون الثاني 1989.

[2] محمد فؤاد كوبيللي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة احمد سعيد سليمان، ط3 (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـاهرة، 1993)، ص ص 78-101.

[3] مصطفى، المصدر السابق، ص9.

[4] حبيب، المصدر السابق، ص ص 225-227.

الديني، يشير الى ان الروح العسكرية هي السائدة في الثقافة العثمانية، اذ استخدمت القوة المادية، التي كان لها دوراً كبيراً في اخضاع القبائل البدوية الأخرى لها، لذا يمكن وصف المجتمع التركي بانه مجتمع محارب وان ثقافته هي ثقافة القوة([1]). وكان العمل العسكري هو الاساس وتحول المجتمع التركي/العثماني الى جيش قبل ان يصبح دولة، وانشأ العثمانيون الامارة ثم الدولة عن طريق التشكيل المتعدد للجيش([2]). ولم يكن لدى االعثمانين معيار الانتماء والعصبية مما عزز من وجود معايير الكفاءة والعمل وجعلهم اكثر حركية في قبول الاخر، ويمكن تفسير التسامح الذي اتبعته الدولة تجاه الشعوب الاخرى الى عدم وجود عصبية او تعصب تجاه الاخر([3]). ويمكن اعتبار الانكشارية استناداً الى الثقافة التركية بطبيعتها هي ثقافة ديناميكية لا تترد في ادماج الاخرين فيها. أن اعتناق الاتراك الاسلام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، قد ادى الى تحول الشعوب الى الاسلام ووجود رابطة تربطهم هي الاسلام وتحولوا من شعوب وصفت بانها عدوة الحضارة الى شعوب مؤسسة للحضارة ومقيمة لدول كبرى، فقد منحهم الاسلام القيم واصبح جوهرهم، لذا فان الميلاد الحضاري للاتراك هو منذ اعتناقهم الاسلام([4]). فضلاً عن ان المحدد السياسي في التعامل العثماني مع الاقليات فقد طبقت الدولة العثمانية نظام الملة([5]) في الاقاليم التي سيطرت عليها وابقاء الأوضاع على ما كانت عليه من قبل السيطرة العثمانية فيما يتعلق بالشعائر الدينية والاجتماعية مقتصرين على دفع الجزية، كما اعترفت الدولة بالقوانيين الداخلية لمختلف الجماعات التي تشكل الدولة حرصاً منها على منع حدوث مشاكل مع السكان لاسيما تلك القوانين المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية، فقد مددوا العمل في المناجم الصربية للصرب مثلاً لافتقار العثمانيين الخبرة في هذا المجال، فضلاً عن اعترافهم بقوانين واعراف هذه المناطق لاسيما اذا كانت لا تلحق اضراراً بمصالح الدولة. كما تعاملت الدولة بمرونة مع البلدان المفتوحة لاسيما البعيدة عن مركز الامبراطورية مثل مولدافيا وفالاشيا فكانتا تدفعان الجزية، وابقت النظام الاجتماعي فيها كما كان علية قبل الفتح العثماني واحتفاظهم بمؤسساتهم شريطة ان يلتزموا بالسياسة الخارجية للسلطان وكذلك االحال بالنسبة للجبل الاسود([6]). ونتيجة لذلك بدت الدولة في سياستها تجاه البلدان المفتوحة عادلة اذ لاقو ترحيباً من قبل فلاحي البلقان وسكان الجزر واليونانيين لان الاوربيين كانوا قد اخضعوهم لاستغلال اقتصادي([7]). وقد

---

1 محمد جميل بهيم، فلسفة التاريخ العثماني، (مكتبة صادر، بيروت،1925)، ص ص 146-147.

2 عقيل سعيد محفوص، جدليات المجتمع والدولة في تركيا المؤسسة العسكرية والسياسة العامة، (مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجة، د- ت) ص ص 20-26.

3 مصطفى، المصدر السابق، ص 105

4 حبيب، المصدر السابق، ص ص 228-236.

5 نظام الملة:

6 المصدر نفسه، ص ص 258-261

7 بول كولز، العثمانيون في اوربا، ترجمة عبد الرحمن عبد ا الشيخ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993)، ص113.

ساعدت طبيعة الديانة الاسلامية وثقافة العثمانيين على قبولهم اهالي البلدان المفتوحة واصبحوا رعايا السلطان. ولابد من الإشارة الى ان الجيش العثماني الذي فتح اقاليم عديدة يضم قطاعات كبيرة من غير المسلمين من بلغار وصرب ويونان ومن اهالي الجبل الاسود والالبان، فلم يكن هناك اي مؤشر أو تحسس من وجود غير المسلمين في الجيش العثماني على الرغم من عـدم اسلامهم([1]).

لقد كان تكيف الدولة العثمانية مع اقلياتها لاسيما فيما يتعلق باقرارها قـوانين البلـدان المفتوحة والسماح لهم بادارة مؤسساتهم واتباع نظام الملة في تلك المناطق، له دوراً كبيراً في استمرارية الدولة في حالة قوتها، لكن اختلف الامر عندما مرت الدولة العثمانية بحالة الضعف والتدهور لان الموقف الدولي تغير واصبحت الاقليات احدى الادوات التي استخدمتها القـوى الدولية لفرض وترتيب أوضاع الاقليات بدعوى حمايتها من اجل تمزيق الدولة العثمانية([2]).

المبحث الثالث:

الأقليات غير المسلمة والممارسة السياسية العثمانية

حافظت الأقليات الدينية في الدولة العثمانية على كيانها الديني والثقافي والاجتمـاعي (وفق نظام الملة). وذلك لم يمنع من اندماجها في الحياة العامة، اذ تقلد أبناء الأقليات مناصب عليا في الدولة كالوزراء والمستشارين، ونبغ فيهم الأطباء والعلمـاء والفلكيـون والـشعراء والأدباء. لقد كان النصارى يقطنون بشكل رئيس في البلقان واليونان وارمينيا وبـلاد الـشام، وهي المناطق التي سيطرت عليها الدولة العثمانية نتيجة التوسعات التـي قادتهـا فـي هـذه المناطق، فضلاً عن تواجدهم في الولايات العثمانية الاخرى بشكل اقل. أما التواجد اليهـودي، فقد فتحت الدولة العثمانية ابوابها امام اليهود بعد طردهم من اسبانيا هروباً من محاكم التفتيش، وروسيا القيصرية بعد عام 1881 اذ وجدوا في الدولة العثمانية الامان، ولم يكن لـديهم ايـة مشكلة في الولايات العثمانية التي استوطنوا فيها بدافع التسامح الديني([3]).

كانت الدولة العثمانية تشمل رقعة واسعة من العالم امتدت بين قارات اسـيا وافريقيـا وبعض اجزاء اوربا، وقد احتفظت الديانات الاخرى بأحقيتهم الدينية، فعاشوا مع المسلمين جنباً الى جنب في ظل التسامح الاسلامي([4]). فهو اي السلطان اضحى الـرئيس الـديني لجميـع

[1] بهيم، المصدر السابق، ص242.

[2] سعت البابوية الى تحطيم الدولة العثمانية من خلال كسبها لبعض الشخصيات الذين وصلوا الى القرار السياسي فـي الدولة ليكونوا عملاء لها، كما بدأت تستخدم غير المسلمين الذين يعيشون داخل الدولة كأداة لتحطيم الدولة العثمانيـة ويمكن القول بان هذه السياسة بدات منذ القرن السادس عشر اذ طرح مفهوم (وحدة العالم المسيحي). حبيب، المصدر السابق، ص 316.

[3] درويش، المصدر السابق، ص ص 158- 160.

[4] احمد نوري النعيمي،اليهود والدولة العثمانية، (بيروت،1997)، ص ص18 -21.

المسلمين وغير المسلمين([1])، وكان رجال الدين يمثلون الاقليات الدينية امام الحكومة، وكانت مدارسهم تتمتع بالاستقلال الثقافي، وقضاياهم ينظر فيها امام المحاكم وفق شرائعهم([2]).

ورغم ذلك تمكنت الدولة من استثمارها وادارتها بشكل جيد، فاحدى الاستراتيجيات التي تبنتها الدولة العثمانية في ادارة مؤسساتها هي الاعتراف بالولاءات لكل جماعة والقبول بخصوصيتها على المستوى العرقي والمرجعي والحقوقي، فلم تتبنى الدولة اي ممارسة قهرية أو عنصرية لصهر هذا التمايز او الغائه، وكان هذا ملمحاً واضحاً في جميع الاقاليم العثمانية لاسيما النصرانية منها، وقد ساعد ذلك على بناء الهويات الاثنية والعرقية في الدولة العثمانية، فكان ينظر الى المواطنين في جميع الاقاليم على انهم رعايا السلطان([3]). وهكذا غابت العصبية على اساس العرق والدم وهو ما جعل جيل فينشتاين يقول في بحثه المعنون الولايات البلقانية (1606-1774) ((ان السلطان لايقف على راي مجرد مجموع ممالك، فلكل يتجاوز الاجزاء ليشكل امبراطورية محددة لا يمكن تعريفها الابانها الامبراطورية العثمانية))([4]).

وفي احصائية للصدور العظام([5]) للفترة (1453-1623) فقد بلغ 48 صدراً خمسة منهم اتراك والباقون موزعون على النحو الآتي: شركسي من القوقاز، واخرين من اصول غير معروفة، وحديثي الدخول في الاسلام. وهذا يعني ان المؤسسات العثمانية كانت مفتوحة لكل مواطني الدولة بغض النظر عن المعايير العرقية أو القومية ([6])، لكن هناك شروط الانضمام الى المؤسسات يجب ان تتوفر في الشخص الذي ينضم اليها وهي:

1. قبول الدين الإسلامي عقيدة وممارسة بلا فصل بينهما، وهذا مستلهماً من الدين الإسلامي الذي يشترط العدالة في الولاية العامة والخاصة.
2. أن يكون موالياً للدولة والسلطان.
3. أن يكون عالماً وممارساً لنظام العادات واللغة والسلوك التي تمثل نمط الحياة العثمانية([7]).

ومن الجدير بالذكر ان وزارة الخارجية في الدولة العثمانية كان العاملين فيها من المسلمين و غير المسلمين، وفي الجدول أدناه يوضح نسبة غير المسلمين العاملين في الوزارة ([8]).

---

[1] روبير منتران، الامبراطورية العثمانية "دراسة تحليلية في نشأتها وتطورها وسقوطها، ترجمة أ.د غانم الحفو، سلسلة شؤون اقليمية رقم 12، (مركز الدراسات الاقليمية، جامعة الموصل،2007)، ص 17.

[2] درويش، المصدر السابق، ص 157.

[3] حبيب، المصدر السابق، ص 312.

[4] نقلاً عن حبيب، المصدر نفسه ص 313.

[5] الصدر الاعظم هو رئيس الوزراء

[6] حبيب، المصدر السابق، ص 314.

[7] Stanford Shaw and Ezel kural Shaw, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, vol l (New York,1978),p13.

[8] نايف عبد نايف نجم الجبوري، موقف نصارى بلاد الشام من الاصلاحات في الدولة العثمانية 1893-1914، اطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة الى كلية الاداب، جامعة الموصل2007، ص 265.

يبدو مما تقدم من الشروط التي وضعتها الدولة العثمانية للانضمام إلى مؤسساتها أن يكون معيار الولاء للدولة والسلطان كأحد المعايير الأساسية للالتحاق بمؤسسات الدولة.

وفي الوقت الذي خضعت فلسطين منذ 1517 للحكم العثماني هاجر إليها اليهود واستوطنوا في القدس وطبرية وصفد والخليل، وهاجروا إليها مرة أخرى في القرن الثامن عشر، تحت حكم الضاهر عمر الذي منحهم الامان، وطيلة الحكم العثماني لم يتخذ أي أجراء ضدهم أوضد حقوقهم الدينية ([1]).ومن الجدير بالذكر الى انه حتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكابد النصارى واليهود وغيرهم اي اضطهاد في الدولة العثمانية ([2])، وقد عامل السلاطين العثمانيون اليهود بكرم وتسامح، ففي عهد الامير اورخان بن عثمان (727-761هـ / 1326- 1359م) سمح لليهود باقامة حارة ومعبد خاص بهم في مدينة بورصة (عاصمة الامارة العثمانية) استمرت بممارسة نشاطهم حتى اربعينيات القرن الماضي، وفي عهد السلطان مراد الثاني (824-855هـ/ 1421 -1451م) منح اليهود حق تملك الاراضي، وتقدم إليه مجموعة من حاخامي اليهود في اوربا بطلب للسماح لهم بالهجرة الى الدولة العثمانية فسمح لهم دون قيد او شرط ولقبه اليهود بـ ((الرجل الإنساني الكبير))([3]). وفي عهد السلطان محمد الفاتح (1451-1481م)، عندما فتح القسطنطينية 1453م رحب به اليهود وزادت امتيازاتهم، اذ فتح المجال للتواجد اليهودي في الدولة، وسمح لهم بالهجرة الى مناطق سكوب وسلانيك وخاص كوي واسكنهم بحي خاص في استانبول، اذ كان بحاجة الى زيادة السكان في هذه المنطقة. واهم الامتيازات التي منحها لهم هي اقامة طقوسهم الدينية بحرية مع المحافظة على معابدهم القديمة، وقراءة التوراة بشكل علني([4]). أما السلطان بايزيد الثاني (1481-1512م) فقد شجع الوجود اليهودي في الدولة دون قيد او شرط واسكن قسماً منهم في سلانيك وقسما اخر في جزيرة ساقيز. والسلطان سليم الأول (1512-1520م)، عندما فتح مصر أقر لزعماء اليهود الدينيين كافة الصلاحيات، وربطهم بالعاصمة استانبول، واعطى لكل جماعة يهودية حق حكم نفسها بنفسها تحت سلطة حاخامها المحلي([5]). كما ان السلاطين تزوجوا من نساء غير مسلمات وكان ولاء البعض منهن لاقوامه من([6]) فمثلاً السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) فقد تزوج من فتاة يهودية اوكرانية تدعى روكسيلانة (خرم سلطان)([7]) التي كان لها نفوذ كبير في القصر السلطاني، اذ تمكنت بنفوذها من قتل الصدر

[1] رفيق شاكر النتشه، السلطان عبد الحميد وفلسطين،ط5، (القاهرة،1990)، ص 31.
[2] منتران، المصدر السابق، ص 19.
[3] الجبوري، المصدر السابق، ص 4.
[4] درويش، المصدر السابق، ص ص 159-162.
[5] المصدر نفسه، ص 164.
[6] حبيب، المصدر السابق، ص 316.
[7] هناك من يرى انها نصرانية.

الاعظم ابراهيم باشا وتنصيب صهرها رستم باشا بدلاً عنه، كما دبرت خنق ولي العهد مصطفى من زوجة سليمان الاولى من اجل تنصيب ابنها (سليم الثاني) وليا للعهد بدلاً عنه، واصبح سلطاناً للمدة (1566-1574)([1]). وعندما فتحت بودابست تم تخصيص سفن لنقل اليهود من ذوي الامكانات الضغيفة في بودين وبودابست واسترجوت، وتم نقل حوالي الف اسرة منهم الى الدولة العثمانية،وكذلك فعل عندما فتح المجر([2])، ومنح السلطان سليم الثاني بعض اليهود القاباً جعلتهم يتمتعون بمكانة عالية في بلاطه، ومنهم ابراهيم كاسترو وزير المالية في عهده عام 1553م([3])، ولليهودية نوربانو زوجة السلطان سليم الثاني ووالدة مراد الثالث دور كبير في فسح المجال للتغلغل اليهودي في القصر السلطاني([4]).

كما اصدر السلطان محمود الثاني في 1836م مرسومين خاصين بمعاملة اهل الذمة:

الأول: تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية صدر تصريح يقضي بالمساواة في الحرية الدينية لكل مواطنيين الدولة العثمانية، الذين يتبعون الديانات الثلاث.

الثاني: جاء فيه ((ولكي تستطيع كل جماعة دينية ان تمارس في حرية كاملة تعاليم دينها دون تدخل، نصرح بان لكل مواطن أن يعبد الله تبعا لأوامر دينه، والا يجبر اي شخص على ترك دينه ومعتقده))([5]).

وهناك مؤسسات في الدولة العثمانية تعاملت مع الاقليات نوردها على النحو الآتي:

أ: مؤسسة الملة:

الملة جماعة تتألف من المواطنين المحليين خاضعة للباب العالي، لها ديانة محددة، ولا تنتمي إلى أصل عرقي واحد، وتكون وحدة سياسية اجتماعية مستقلة. وفي نظام الملل نمت سلطة البطاركة والحاخامات الدينية والمدنية([6]). ونظام الملة هو استمرار تاريخي وقانوني لمصطلح اهل الذمة الا ان الاخير تعبير عن الخبرة العربية. بينما الملة تعبير عن الخبرة العثمانية.

[1] علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية،ط3،(بيروت، 1983)،ص 185.

[2] درويش، المصدر السابق، ص ص 165-166.

[3] كان مسؤولاً عن صك العملة في مصر، وكان ولاة مصر العثمانيون يختارون شخصيات يهودية للقيام بالاعمال المالية. احمد عثمان، تاريخ اليهود،ج3،(القاهرة،1993)، ص 13.

[4] النعيمي، المصدر السابق، ص ص 30-35.

[5] احمد نوري النعيمي، أثرالاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، (جامعة بغداد،1982)، ص 18، وعن اصلاحات السلطان محمود الثاني انظر: محمود عبد اللطيف البحراوي، حركة الاصلاح العثماني في عهد السلطان محمود الثاني 1809-1839،(مطابع المختار الاسلامي، دار السلام، 1978).

[6] حنا سعيد كلداني،المسيحية المعاصرة في الاردن وفلسطين، (عمان، 1993)، ص 3.
Bateh: Les Chrétiens de Palestine sous la domination ottomane. P, 114

أما مؤسسة الملة فهي التي تنظم شئون غير المسلمين في الدولة وذلك بمـنحهم حـق الاستقلال بانتخاب رؤسائهم الدينيين، وحق ممارسة شئونهم الخاصة فـي التعلـيم والقـضاء والضرائب تحت اشراف رؤسائهم. ومؤسسة الملة وسيطة بين الدولة واهل الملل الاخرى، اذ يقوم رئيس كل ملة باستقبال الفرمانات والاوامر السلطانية ويبلغ بها جماعته ويتابع تنفيـذها، وفي المقابل فان اتباع الملة يبلغون رؤسائهم الدينيين بمطالبهم وفق موافقة سلطانية([1]). وفـي الحقيقة ان السلطان محمد الثاني (الفاتح) هو الذي جعل من مؤسسة الملة جزء من بنية الدولة ووضع لها القواعد والاسس التي لم يسبق لها مثيل في الدولة الإسلامية([2]).

إن الخط الهمايوني الذي أصدرته الدولة العثمانية فـي 1856 كجـزء مـن قـوانين "الإصلاحات الخيرية" بهدف تحقيق المساواة بين الأقليات غير المـسلمة وبـين المـسلمين.. تضمن نصوصاً تساوي بين المسلمين وغيرهم ـ على سبيل المثال ـ: "تمحى إلى الأبد مـن المحررات الرسمية كافة الألفاظ المتضمنة تحقير جنس الآخر.. ولا يجبر على تغيير دينـه أو مذهبه"، والمساواة في التجنيد.. والمدارس والوظائف.. والخراج.. والشهادة فـي المحـاكم.. وإلغاء الجزية.. إلخ. وأنشئ هذا المرسوم "نظام الملل" الذي أتاح للأقليات استقلالا قضائياً في الأحوال الشخصية.. وإنشاء المدارس الخاصة... كما قنن اشتراك زعماء الأقليات في مجالس الشورى([3]).

وسبق ان منح السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر من بـاب التـسامح والمجاملة لقب حامي الكاثوليكية في الديار الإسلامية لفرانسو الاول ملك فرنسا، وبهـذا فـتح باب الامتيازات الاجنبية، وهي البداية لماعرف فيما بعد بمشكلة الاقليات([4]). والامتيازات في الاصل معاهدات ثنائية يحكمها نظام قانوني خاص، يعرف بإسم نظـام الـسلطان القـضائي اللااقليمي، طورته الدول الغربية وفرضته على الدول الاخرى بفـضل قوتهـا، كـي تـؤمن لرعاياها إجراءات قانونية تشبه تلك القائمة على اراضيها، من منظور انها اكثر عدالة من تلك القائمة في اسيا وافريقيا، لذلك لابد من عقد معاهدات يتم بموجبها توكيد رعايـة المجموعـة الاولى من الدول عندما يقيم رعاياها أو يتواجدون في بلاد المجموعة الثانية، بتطبيق مقـاييس العدالة نفسها التي يتمتعون بها في بلادهم([5]).

وعلى مايبدو ان نظام الامتيازات العثماني قد تحول من هبات قانونية مجانية منحتهـا الدولة العثمانية للقنصليات الاجنبية في مجال القضاء والتجارة، إلى حماية الاقليـات والملـل

---

[1] حبيب، المصدر السابق، ص322.

[2] Shaw,op.cit, p 62

[3] دستور، مجموعة القوانين والانظمة الصادرة في الدولة العثمانية، ترجمة نوفل نعمة ا افندي، المجلد الاول، (بيـروت، 1301 هـ)، ص ص5-10.

[4] المرجة، المصدر السابق، ص 76.

[5] حسام الدين علي عبد المجيد الداقوقي، استراتيجية التغريب تجاه العالم الاسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كليـة العلوم السياسية،جامعة بغداد،2002، ص72.

النصرانية في اعراف تلك الدول، فاخترق نظام الامتيازات نظام الملل، ومن جهة أخرى استنجد نظام الملل بالحماية الاجنبية، ولاسيما في ظاهرة تخلّي موظفي القنصليات والمواطنين النصارى العثمانيين عن الجنسية العثمانية للحصول على جنسية أجنبية من القنصليات الأجنبية الموجودة في الدولة العثمانية: "بدأت الامتيازات تخترق تدريجاً نظام الملّة عبر توسعها كصيغة قانونية دولية تستجيب لتوسيع نطاق التجارة الغربية وزبائنها ووكلائها، وذلك من خلال تحويل الملّة غير الاسلامية إلى وجود لم يعرف في التاريخ العربي الإسلامي، وجود يرتكز على مفهوم الأقلية القائمة على الحماية ومن خلال توظيف استقلالية الملّة المستوعبة في الأساس بصيغة رعايا السلطان في مفهوم يماثل الملّة والامة (Nation)"([1]) وفي ثنايا الاختراق والاستنجاد بين نظامي الامتيازات والملل تكونت تدريجياً مقولة وحقيقة الحماية الغربية للنصارى، فعدت فرنسا حامية الكاثوليك وروسيا القيصرية حامية الأرثوذكس وإنكلترا حامية البروتستانت.كما ظهرت فاعلية الامتيازات وحقيقة الأقليات في الدولة العثمانية في صراع الطوائف النصرانية على الأماكن المقدسة، فقد احتفظ اللاتين بحقوقهم منذ عام 1333م، وفي بداية العهد العثماني لم تمس هذه الحقوق على الرغم من سيطرة العناصر اليونانية على بطريركية القدس، ثم بدأ الصراع بين الفريقين عام 1630م، وتمتاز هذه الفترة بظهور الفرمانات والعهود غير الموثقة، ونُسبت هذه العهود إلى الخليفة عمر بن الخطاب وامير المومنين معاوية بن ابي سفيان وإلى سلاطين الدولة العثمانية محمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني([2]).

ومن النتائج المترتبة عن نظام الملة ترابط الجماعات النصرانية ونهوضها بسبب تنظيم شؤون البطركيات والاسقفيات. لان التنظيمات كانت تتضمن بداخلها جدلان متناقضان الاول: محاولة ايجاد صيغة تربط جميع الرعايا العثمانين بخلق انتماء جديد هو الانتماء العثماني، اما الثاني الغاء كل مظاهر التميز بين جمع الطوائف من خلال ايجاد نظام تعليمي ونظام قانوني موحدين ونظام اداري وسياسي مفتوح للجميع. لكن ذلك جعل غير المسلمين يستغلون التنظيمات واخذوا بترتيب أوضاع الاقليات غير المسلمة وبدات تطالب بالاستقلال والانفصال. وكان هذا ابرز مفارقات التنظيمات.لقد تحولت الملة الى امة وتمثلت تعبيرات الاقلية والطائفية السياسية وذلك بجعل خصوصيتها الثقافية والدينية اداة ايدلوجية لتبرير حصولها على مكاسب سياسية تخدم مشروعها الفئوي الخاص. اي ان التنوع والتعدد على المستوى الاجتماعي والثقافي الى المستوى السياسي ليكون اساساً لبرنامج انفصالي يهدد وحدة المجتمع والدولة([3]).

---

[1] وجية كوثراني، المسيحيون في نظام الملل إلى الدولة المحدثة، مجلة تاريخ العرب و العالم، عدد.32، 1981، ص 18.

[2] كلداني، المصدر السابق، ص ص 3-4.

[3] حبيب، المصدر السابق، ص ص 435-436.

تعزز موقع الاقليات في الدولة العثمانية بشكل غير مسبوق، من خلال مراجعة قانون الولايات([1]). وفي مجال التعليم كان في صفوف الاقليات غير المسلمة رواج واضح للتعليم الحديث اذ ظهر الى الوجود العديد من المدارس الحديثة، وعلى سبيل المثال لا الحصر كان للارمن لوحدهم 48 مدرسة في استانبول و469 منشأة تعليمية منتشرة عبر الاناضول، فضلاً عن الارساليات الاجنبية البروتستانتية والكاثوليكية الموجهة لابناء الاقليات، مما يؤكد نهضة علمية شهدها ابناء الاقليات في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين([2]). كما تم الغاء الجزية في عام 1857 وتم فرض التجنيد الاجباري على غير المسلمين، ومدة الخدمة 20 عاماً، لكن هناك البدل النقدي مقابل الاعفاء عن الخدمة. وكان رؤساء الطوائف يجبون البدل ويتلكون في دفعها للدولة حتى عام 1902 عندما اوكلت مهمة جبايتها الى جباة الضرائب. فضلاً عن ان التنظيمات كانت قد ادت الى ازدياد ارتباط الاقليات غير المسلمة بالدول الاجنبية لاعتقادها ان مصالحها بالاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية لايتم الا بمساعدة خارجية، كان ذلك واضحا في معاهدة كوجي قنيارجي عام 1774بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية ومعاهدة زشتوى وياش بين الدولة العثمانية والنمسا عام 1791. وهذا يعني التوظيف السياسي للاقليات بغض النظر عن المذهب او اللغة وهي اهم الوسائل التي اتبعتها الدول الاوربية لغرض تفكيك الدولة العثمانية.كما ان نظام الملة العثماني بدأ يتفكك فمع ضعف الدولة العثمانية، بدا تعاظم قوة النفوذ الخارجي داخلها وسعت القوى الخارجية لكسب الانصار والاتباع مما ادى الى تفتيت نظام الملة وحل محله نظاماً طائفياً([3]).

ب: مؤسسة الطوائف المهنية:

هي احدى افرازات مؤسسة الملة على المستوى الصناعي والحرفي، وهذه المؤسسة لها نظام يكاد يكون مطلقاً، فالى جانب قواعد ممارسة المهنة وتحديد الاسعار والارباح، فانها تختار النقباء والممثلين لها لدى السلطة، فضلاً عن قيامهم بتسيير الامور الخاصة بالمهنة وابلاغ الاوامر التي تصدرها السلطة لانجاز الاعمال الادارية المحلية وضبط سلوك الاعضاء، لغرض الحفاظ على الاستقرار وكان لدى هولاء صندوق للخدمات الاجتماعية لاعانة المحتاجين والفقراء. وهذه المؤسسات تشبه النقابات في الوقت الحاضر، الان النقابات المهنية في العهد العثماني كانت تمثل انتماء اعمق لافرادها وتستوعبهم بشكل اكبر([4]).

[1] في المواد 13و19 و25و33و39و46و4751و54و58، انظر دستور، المصدر السابق، ص ص 383-391.

[2] حبيب، المصدر السابق، ص 438.

[3] المصدر نفسه، ص 441.

[4] Shaw ,op,cit,vol 1,p157

ويدخل الانتماء الديني الى جانب الحرفي اي الطائفة لم تكن مجرد انتماء مهني بل ديني ايضاً. وكانت الطوائف المهنية رابطة ادارية مهمة بين السلطة والرعية فاحدى وظائفها هي مساعدة السلطة على السيطرة والحفاظ على الاستقرار من خلال لجوء السلطة الى شيوخ الطوائف والمهن لمساعدتها في حفظ الامن والاستقرار. وهناك وثيقة مؤرخة بعام 1734تضم قائمة باسماء (151) حرفيا في اعمال الخشب والحديد الذين يحتاجهم السلطان في بناء السفن. وفي حالة حدوث ازمة او مجاعة تلجأ السلطة الى شيوخ الطوائف من اجل المساعدة في حلها وتجاوزها. كما ان شيوخ الطوائف يجبون الضرائب المفروضة على الطائفة وهي مورد مهم للدولة ([1]). وقد انفرد اهل كل دين بمهنة معينة فالعطارين وتبيض المنازل وتجارة المواد الغذائية للمسلمين، والارمن ونصارى سوريا يحتكرون الصياغة في معظم الولايات العثمانية، أما اليهود يقومون بعمل خاص هو السمسرة في المعادن الثمينة([2])، وهناك نقابات ينتمي اليها المسلمين والذميين كنقابة صانعي الاحذية في استانبول وكان رؤوساء النقابات من المسلمين([3]).

ولابد من الاشارة الى ان كل ملة ترغب في الاقامة بحي خاص بها ولانها متخصصة بنشاط اقتصادي يميزها فان التداخل بين الاحياء والنشاط الاقتصادي والملة الدينية ترسخت في المدن العثمانية، وادى هذا التداخل الى تداخل في المستويات الادارية والتنظيمية فرؤساء النقابات المهنية في الحي هم رؤساء النقابات المهنية، فكانت الاحياء بهذا الشكل تمثل وحدة ادارية مستقلة على المستوى الديني والطائفي وهو مظهر جعل احد ضباط البحرية الروسية يقول مندهشاً بالتسامح العثماني ((ان النساك المسلمين ليسوا كرجال الدين الاوربيين في اظهارهم البغض تجاه من يدعون الى دين اخر والدليل على ذلك هو ان المسيحون واليهود الذين يعيشون هنا يمكنهم ادارة شؤنهم بحرية وفقاً لقوانينهم))([4]).

ج: مؤسسة الجيش

كانت مؤسسة الجيش اهم مؤسسات الدولة لانها اعتمدت على القتال وضم بلدان جديدة لاراضيها، وكانت الدولة العثمانية لا تقتصر على ضم الأراضي الى الدولة بل تسعى الى عمرانها، فالقطاعات العسكرية هي قطاعات ادارية ايضاً. كما تم تشكيل فرق عسكرية من ابناء النصارى الاسرى، ثم صاروا يشاركون نصارى الداخل بهذه الفرق، وتطورت هذه

[1] حبيب، المصدر السابق، ص 347.

[2] ليلى الصباغ،المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، (دمشق،1973)، ص ص 76-77

[3] هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الاسلامي والغرب،ترجمة عبد الرحيم مصطفى، (القاهرة،1971)، ص 134.

[4] حبيب، المصدر السابق، ص 354.

الفرق الى جيش عرف بجيش الانكشارية، اذ اصبح من اهم الجيوش العثمانية([1]). فضلاً عـن الانكشارية فقد طبقت الدولة العثمانية خبراتها في مؤسسة الدوشرمة وهي وجود طائفـة مـن الجند والاداريين والسياسين الذين لاعصبية لهم سوى عصبيتهم للدولة، وقد تركهم العثمانيون على ديانتهم، ومن المرجح ان العثمانين قد اتفقوا مع اهالي البلدان التي جمعوا منها الاطفـال الذين اصبحوا ضمن هذه الموسسة على ابقائهم على ديانتهم، وكانت هذه احدى الوسائل التـي حافظت الدولة العثمانية فيها على الاستقرار والامن في هذه البلدان. وبعد زوال الدوشرمة([2]) بدأت عصابات قطع الطرق واللصوص تنتشر في البلقان.كما وجدت قوى نصرانية في الجيش العثماني بالاضافة الى ماسبق وظلت على معتقداتها الدينية وهي مـاتعرف بـ ((وينـوق)) و((طوغانجي))، فالوينوق هم من البلغار المسلمين والنصارى وهناك من يرى ان النـصارى يشكلون النسبة الرئيسة فيه، مهمتهم هي تربية خيـول لاسـطبلات الامبراطوريـة وكبـار الموظفين والنبلاء، وهم لايدفعون الـضرائب ويخـضعون لقيـادة ((وينـوق بـك)). أمـا ((الطوغانجية)) او القناصة كان معظمهم من البلغار وكانت امتيـازاتهم شـبيها بامتيـازات الوينوق، وكان سلاح المدفعية يضم نسبة عالية من النصارى ففي احصائية لعام 1514م بلـغ عدد رجال هذا السلاح 348 فرداً من بينهم 100 من النصارى، كما ان التيمار وهـو تـابع للجيش العثماني، فمع توسع الدولة في البلقان واوربا، ضمت افراداً من نصارى الاسـتقراطية المحلية الى هذه الفئة وقد تحول احفادهم الى الاسلام بمرور الـزمن، ومـن ثـم فقـد كـان السباهيون في القرن 16 جميعهم مسلمين ([3]).

د: مؤسسة العهود نامه:

هي المؤسسة التي تنظم الجوانب القانونية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لإقامـة غير المسلمين في الدولة الاسلامية وذلك عن طريق العهود التي تبرم بين الدولـة الاسـلامية دول هولاء المستامنين ويدخل هولاء ضمن الجاليات الاجنبية ([4]).

---

[1] نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الاخوة وفتنة الانكشارية، ط1،(دار الفكر اللبنـاني،بيروت، 1992)، ص ص 19-20.

[2] كانت الدولة العثمانية الذين تجمعهم الى عاصمة الخلافة العثمانية، حيث يدرسون التركية والتاريخ الاسلامي العـام والتاريخ العثماني والنظم العثمانية وفق مناهج أعدت بعناية وتعرض عليهم مبادى الاسلام،فضلاً عن تلقـيهم تربيـة عسكرية صارمة وهو ماعرف بالدوشرمة. وكانت الدولة تقسمهم الى 3 أقسام، الاول لشغل الوظائف والخدمة فـي القصور السلطانية، والثاني لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة، القسم الثالث والاخير هم الاساس لفرق المشاة العسكرية (الانكشارية).

[3] حبيب، المصدر السابق، ص ص 344-345

[4] الجبوري، المصدر السابق، ص11.

هـ: مؤسسة الحريم، وقد تمثل من خلال زواج السلاطين العثمانيين من الاميرات النصرانيات، كما اشرنا([1]).

التنظيمات العثمانية:

كانت الإصلاحات متعارضة اساساً مع النظم المستمدة من أحكام الشريعة الاسلامية والتي درجت عليها الدولة العثمانية منذ نشأتها([2]). وقد جاءت الاصلاحات العثمانية في وقت كانت الدولة بامس الحاجة اليها، وفي الحقيقة بدأت الاصلاحات في وقت مبكر من حياة الدولة، لكن في عهد السلطان سليم الثالث (17-1807) شكلت الاصلاحات نقله نوعية اذ مثلت بداية من نوع جديد في التاريخ العثماني لاعتمادها على النموذج الاوربي في التحديث([3]) وتواصلت خلال حكم السلطان محمود الثاني لكن اتت اكلها في عهد السلطان عبد المجيد (1839-1861) الذي ارتبط عهده بصدور خط شريف كلخانة 1839 والخط الهمايوني1856 اللذين كانا لهما الاثر الواضح على الحركة الاصلاحية([4]).

والتنظيمات يقصد بها تنظيم شؤون الدولة العثمانية على غرار الدول الاوربية، واحداث تقارب بين العالمين الاسلامي والغربي، الذي عاش بعيداً عنه قروناً عدة، وذلك بسبب الهزائم العسكرية التي مني بها الجيش العثماني، والموت المفاجئ للسلطان محمود الثاني وافتقار السلطان عبد المجيد الاول الى الخبرة والقابلية في ادارة الدولة، فضلاً عن انتشار الفساد وسوء الادارة اللذان كانا يسودان المؤسسات الادارية كافة في الدولة، كان دافعاً لتحريك الاصلاح في الدولة العثمانية، لكن كان هناك راي يرى بان الاخذ بالاصلاحات على وفق الافكار الاوربية مخالفة للشريعة الاسلامية ([5])، الى جانب من يروج للرأي القائل بان الدولة اذا ماأخذت باشكال الحكم الاوربية، سيتلوه تلقائياً قيام دولة قوية وحديثة من جهة اخرى. لذا اصدرت الدولة العثمانية التنظيمات، التي مرت بمرحلتين هما:

<u>المرحلة الاولى</u>: التنظيمات العثمانية الخيرية المعروفة بخط شريف كلخانة، اعلنها السلطان عبد المجيد في 26 شعبان1255هـ الموافق 4 كانون الثاني1839 م القاضية بتغيير مؤسسات الدولة بشكل جوهري، وعدم التميز بين المواطنيين في الحقوق والواجبات،على اساس مذهبي او قومي، كما اكد على حرية ممارسة الشعائر الدينية لجميع الاديان ([6]). وفي هذا المرسوم

---

[1] المصدر نفسه، ص12.

[2] المرجه، المصدر السابق،ص71.

[3] الجبوري، المصدر السابق، ص42

[4] سلوى سعد الغالبي، العلاقات العثمانية الامريكية 1831918م/1246-1337هـ، ط1، (مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002)، ص 87.

[5] عباس عبد الوهاب علي فارس ال صالح، سياسة بريطانيا الخارجية تجاه الدولة العثمانية 1839-1856، اطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة الى كلية الاداب،جامعة الموصل2007، ص 89.

[6] سليمان البستاني، عبرة وذكرى، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق ودراسة خالدة زيادة، ط1، (بيروت، 1978)، ص ص 25- 29.

نلمس التغير الذي طرأ على سياسة الدولة العثمانية والاعتراف صراحة بأسباب الوهن ونقاط الضعف ورصد الإجراءات التي يمكن أن تعيد للدولة قوتها وصيانة حقـوق رعاياهـا برفـع المعاناة عنهم في مختلف الميادين ([1]).

المرحلة الثانية: الإصلاحات المعروفة بخط همايون واعلنها السلطان عبـد المجيـد فـي 11 جمادي الاخرة عام 1272 هـ الموافق 18 شباط 1856م وأكد فيهـا المبـادئ الاصـلاحية الواردة في مرسوم كلخانة، القاضي بتامين رعايا الدولة على ارواحهم وممتلكاتهم، والمساواة في دفع الضرائب، وتمثيل الطوائف غير الاسلامية في المجالس المحلية في القرى والاقـاليم، ورفع الجزية عنهم، ومشاركة ابنائهم في المدارس الحكومية، لكونها مقتـصرة علـى ابنـاء المسلمين، فضلاً عن مشاركتهم بالجيش والوظائف الحكومية، والتعهد بالقضاء علـى الفـساد الموجود في الموسسات الحكومية كالرشوة مثلاً. كما استمدت هذه التنظيمات مبادئ أخرى من الأنظمة الأوربية ([2]).

وبسبب الضغوط الغربية، والظروف الحرجة التي مرت بها الدولة العثمانية أصدرت هذه المراسيم الاصلاحية رغبة منها للحصول على مساعدة الغرب، فمرسوم عام 1839 صدر وكان الثمن الذي حصلت عليه الدول الاوربية ولاسيما بريطانيا من الدولة العثمانية في مقابل تسوية النزاع مع والي مصر محمد علي باشا عام 1840 وبالذات مسالة مساواة رعايا الدولة مع امام القانون([3]). أما مرسوم عام1856صدر على أثر نهاية حرب القرم (1853-1856)، فالضغط الأوربي بوجه عام والبريطاني بشكل خاص، كان منشأ حركة التنظيمات أو حركـة التجديد والإصلاح العثمانية في المرسومين، خلال القرن التاسع عشر، فضلاً عن عامل اخـر اسهم في هذه الحركة، وهو اقتناع الدولة والمتأثرين بالثقافة الغربية بضرورة اصلاح جهـاز الدولة وتجديده على اساس اقتباس النظم الاوربية او الاستلال منها من غير المساس بالاحكام الشرعية([4])، كذلك خضوع السلطان عبد المجيد لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله، وهو الذي اعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته ساهم هؤلاء فـي دفع عجلة التغريب التي بداها([5]).

ولعل ما يؤكد ذلك بوضوح اختلاف المرسومين على الرغم من تشابهما في الكثير من النقاط، فقد جاء مرسوم 1856مختلفاً عن مرسوم 1839 بأنه اقتبس اكثر مواده من الغـرب، بصورة لم تعهده الوثائق العثمانية من قبل، فلم يستشهد بأية قرانيـة، ولا بقـوانين الدولـة و

[1] الغالبي، المصدر السابق ن ص88.

[2] انظر نص المرسوم: كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، جمع فارس الشدياق، ج5، (مطبعة الجوائب، الاستانة العلية، 1295 هـ)، ص ص 260-263.

[3] الغالبي، المصدر السابق، ص 88.

[4] علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، ط2، (دار المعرفة، بيروت، 2005)، 407.

[5] مذكرات السلطان عبد الحميد،ترجمة وتعليق محمد حرب عبد الحميد، (دار الانصار، بيروت، 1978)، ص3.

أمجادها، كما الحقت بالمرسوم مذكرة تؤكد من جديد عـدم تطبيـق عقوبـة الاعـدام علـى المرتدين([1]). وهذا تماشياً مع بعض ماتريده الدول الغربية.

فضلاً عن أن التنظيمات العثمانية زادت من ترابط الجماعـات النـصرانية، بـسبب ماتضمنته من تنظيم شوؤن البطريركيات والاسقفيات، وتكوين مجالس الطوائـف.كمـا انهـم حصلوا على امتيازات لم يحصلوا عليها رعايا الدولة من المسلمين. فضلاً عـن ذلـك فـان الاجراءات المتبعة في تطبيق الاصلاحات وفق ماجاء في مرسوم التنظيمات برفـع وتحـسين المستوى المعاشي قد خصص للمناطق التي يقطنها النصارى في البلقان واليونـان، واهملـت تماماً المناطق الكبرى التي يقطنها المسلمون. كما وسعت حركة التنظيمـات الاتـصال مـع الغرب سياسياً وثقافياً واجتماعياً، لذا سعت الدول الغربية بتأطير هـذا التوجـه الـى اقامـة مؤسساتها التي ترعى مـصالحها، وتعمـل علـى تحقيـق اهـدافها، اذ فتحـت الـسفارات والقنصليات([2])، فضلاً عن الكثير من المدارس التبشيرية (التنصيرية)، وكذلك فـتح مراكـز ومؤسسات لتحقيق اهدافها، وخدمة مصالحها([3]).

اما عن التنظيمات الجديدة: صدر هذا الخط في أواخر عهد الـسلطان عبـد العزيـز (1861-1876) في 15 ذي القعدة 1292هـ الموافق 13 كانون الأول 1874م نذكر بعـض مما جاء في هذه التنظمات:

1. منح السلطان عموم الرعايا حق انتخاب مميزين وأعضاء مجالس الادارة وتعينهم سواء كانوا مسلمين اوغير المسلمين كي تكون اصول تشكيلات وانتخابـات هـذه المحـاكم موضع ثقة الرعايا واعتمادهم وكي لا تكون تحت تاثير الحكومة.
2. التاكيد على المساواة بين الرعايا مع استمرار الامتيازات للطوائف غير المسلمة.
3. السماح لغير المسلمين بالمشاركة في مؤسسات الدولة.

تنظيم استيفاء البدل العسكري من غير المسلمين والتي فرضت عليهم مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية التي يقوم بها المسلمون ([4]).

القانون الاساسي العثماني1293هـ ـ/ 1876 م (المشروطية)

عرف الدستور باسم القانون الاساسي العثماني، وهي وثيقة دستورية وضـعت وفـق الاسس والمفاهيم الحديثة للدساتير، اصدرها السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909م)، في عام 1876 لإصلاح أمور الدولة بسبب الضغوط الروسية والتدخل في شؤونها،فضلاً عن تاثر بعض الساسة العثمانيين بالغرب وظهور اتجاه يدعو الى الاصلاحات الدستورية([5]). وقد علق

---

[1] اسلاموجلو، هوري وكيدر، ساجلار، قراءة جديدة للتاريخ العثماني،في هوفسبيان، نوبار (المحرر)، واحمد فيـروز واخـرون، تركيا بين الصفوة البيرقراطية والحكم العسكري، (مؤسسة الابحاث العربية، 1985)، ص 95.

[2] للمزيد انظر: عبد السلام رووف، الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي، (النجف، 1975).

[3] كرم شلبي، الاذاعات التنصيرية الموجهة الى المسلمين العرب، (القاهرة، 1991)، ص44.

[4] حبيب، المصدر السابق، ص 433-434.

[5] الجبوري، المصدر السابق، ص68.

السلطان العمل بالدستور بعد فترة وجيزة من اصداره بسبب الحـرب الروسـية – العثمانيـة (1877-1878). وبقدر تعلق الامر بالاقليات غير المسلمة فقد ورد فـي القـانون الأسـاس العثماني في شأن هذه الاقليات، اذ عد دين الدولة الرسمي الاسلام، مع ضمان حريـة الفكـر والمعتقد لغير المسلمين. كما ضمن الدستور المساواة لمواطني الدولة العثمانيـة فـي تـولي المناصب مع استمرار الامتيازات الممنوحه للجماعات المختلفة،وكان يطلق لقب عثماني على الجميع بدون استثناء من اي مذهب او دين والحصول على الصفة العثمانية وفقـدانها يكـون بقانون([1]).

المبحث الرابع:

السياسة البريطانية تجاه الأقليات الدينية

حاولت الدول الاوربية وفي مقدمتهم بريطانيا، من خلال تحـريض الأقليـات غيـر المسلمة ضد الاكثرية واثارة مخاوفها من جهة واغرائها بتغذية اطماعها والانفصال من جهـة اخرى، واضعاف الانتماء والولاء الوطني لديها، لتفتيت المجتمع وخلخلـة تماسـكه ليكـون الصراع ذريعة للتدخل الاجنبي وبسط نفوذ الدول المستفيدة والمغذية للصراع لتحقيق اهـدافها ومصالحها لاسيما وان اراضي الدولة العثمانية تحوي على الكثير من الثروات، فـضلاً عـن كونها تسيطر على الطرق التجارية البرية والبحرية، كما ان الدولة العثمانية سوقاً لتـصريف منتجاتها، ومصدر المواد الاولية، لذا سعت الى دعم الاقليات واستغلالها واطلقوا عليها مشاكل الأقليات، ثم المسالة الشرقية، فاثاروا موضوع الاتفاقيات القديمة التي ترجع الى عهد سـليمان القانوني (1520-1566م)، والاتفاق الودي التجاري مع البنادقة عام 1454م([2])، وجددت هذه الاتفاقيات والمعاهدات المماثلة مع الفرنسيين عام 1535م([3]) ومع البريطانيين عـام 1580م،

---

[1] رعد الجدة، التشريعات الدستورية في العراق، (بيت الحكمة، بغداد، 1998)، ص ص 15-16.

[2] عقدت الدولة العثمانية مع جمهورية البندقية المعاهدة لغرض تسهيل تجارة البنادقة في الدولة العثمانية.حسين محمـد القهـواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي 1869-1914،(بغداد،1980)، ص73. وحصلت جمهورية البندقية على امتيازات في عام 1517 و1521 وفي السنة الاخيرة كانت امتيازات خاصة بتعاملها التجاري في ارجاء الدولة العثمانية.ينظر: جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الاوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر، ترجمة عمر الاسكندري،(القاهرة،1957)، ص 99.

[3] منحت معاهدة 1535حق الامتيازات الاجنبية لفرنسا في الاراضي العثمانية وهي امتيازات تتعلق بحرية الملاحة، والتجارة فـي المؤاني العثمانية وتخفيض الرسوم المفروضة على الفرنسيين بنسبة 5%، واعفاء التجار الفرنسيين مـن الخـضوع للقـوانين العثمانية، ومعاملتهم بحسب تشريع قنصلي في الشؤون المدنية والجنائية، كما اقرت للمستوطنين حرية ممارسة شعائرهم الدينية، وحماية الاماكن المقدسة وقضايا اخرى تتعلق بالتملك والملاحة.على حين تم تجديد الامتيازات الممنوحة لفرنسا في الاراضـي العثمانية نحو8 مرات خلال الفترة مابين 1535-1740.وقد عززت المصالح السياسية بين الدولة العثمانية وفرنـسا الـروابط التجارية والاقتصادية، فأسست شركة المشرق عام 1670، الامر الذي سهل العمل التجاري بين فرنسا والاقاليم العربية التابعـة للدولة العثمانية ولاسيما العراق والشام.وليد كاصد الزيدي، الفرانكوفونية في المنطقة العربية الواقع والافاق المستقبلية،سلـسلة دراسات استراتيجية العدد113، ط1،(مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية،ابو ظبي، 2006)،ص 9.

ومن الجدير بالذكرأن امتيازات عام 1535 افتقدت الى صيغة المعاهدات وشكلها القانوني، من حيث التصديق عليها وتبادل وثائقها، فالواقع ان الامتيازات حتى عام 1740 كانت مجرد منح أو رخص وقتية. والرخصه تسحب كما تمنح وتنتهي بموت مانحها، وهذا ماحدث بالفعل لامتيازات 1535 فقد الغيت بموت السلطان سليمان القانوني.في حين أن امتيازات 1740 التي نالتها فرنسا هي اول معاهدة بالمعنى القانوني الصحيح للامتيازات الاجنبية.ينظر: الداقوقي، المصدر السابق، ص ص72- 73.

واذا بالمشكلة تتحول الى حقوق مكتسبة تنادي بالامتيازات الاجنبية([1])، الى حد حماية المخربين والجواسيس تحت ستار هذه المعاهدات([2]) من اجل تحقيق مصالحها واهدافها في احكام السيطرة على (الرجل المريض). إذ غدت هذه الامتيازات بمثابة الامتداد الاقليمي، لانها عملياً لم تكن تنازلاً منتزعاً من دولة شرقية ضعيفة، الا انها رغم ذلك كانت مؤشراً حين اقرارها على قيام التنازل من لدن الدولة العثمانية بشأن اختصاصها بحماية أهل الذمة في المجتمع الإسلامي، ليمتد الأمر شاملاً الترتيب الداخلي للنظام الإسلامي ذاته بشأن وضعية النصارى الاجانب([3]).

فالدول الغربية لم تجعل من تلك المعاهدات منحه وحسب فقد سمحت بها الدولة العثمانية وهي في اوج قوتها، بل اتخذتها لاحقاً موضع حق في فرض امتيازاتها، وبدا ذلك على نحو جلي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إذ تنامت الامتيازات شاملة عموم الدول الغربية ابتداءاً بفرنسا عام 1740م، فقد ادعت لأجل ترسيخها بأن وجودها قد نشأ أصلاً في سد نقص في التشريع الإسلامي وقصوره في تنظيم حياة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. وتبعاً لذلك باتت تلك الامتيازات غير مقتصرة على الاختصاصات القضائية فحسب بل اتسعت لتشمل النواحي ذات الصلة بصميم سيادة الدولة، فقد تجاوزوا امتيازاتهم في حماية رعايا الدولة من النصارى الى المسائل الاقتصادية والتجارية([4]).

وللوقوف على نهج السياسة البريطانية تجاه الأقليات غير المسلمة في الدولة العثمانية سنسلط الضوء على: أ. المصالح البريطانة في الدولة العثمانية، ب. بريطانيا والاقليات غير المسلمة في الدولة العثمانية.

أ: المصالح البريطانية في الدولة العثمانية

لم يبدأ اهتمام بريطانيا بالدولة العثمانية وقضاياها الا في العقود الاخيرة من القرن السادس عشر، وبهذا تاخرت العلاقات الرسمية بين البلدين الى هذا التاريخ، ويعزى سبب

---

[1] ان الإطار العام للامتيازات هو:
التمهيد للسيطرة على الدولة العثمانية من خلال الاقليات الدينية لاسيما في اوربا الشرقية والتي عرفت بالمسألة الشرقية بدافع الاستحواذ على ممتلكاتها والتنافس الأوربي عليها, فكانت الخطوة الأولى المتمثلة في تصفيتها والسيطرة على ممتلكاتها.
أشكال الامتيازات
- الامتيازات الدينية: وهي أولى أشكال الامتيازات التي تعود إلى عهد السلطان سليمان القانوني والملك الفرنسي فرانسوا الأول، وتتمثل في حالة رعاية البعثات التبشيرية والعناية بالأماكن المقدسة وترميمها.بمنطقة فلسطين(القدس،الناصرة،بيت لحم...).
- الامتيازات الاقتصادية :وتشمل منح الأجانب ملكيات،عقارات،تسهيلات لممارسة التجارة،العبور عبر المضائق،استعمال أرصفة الموانئ،الصيد البحري،استغلال أراضي فلاحية،إقامة ورشات صناعية...الخ.
- الامتيازات السياسية :وتشمل كذلك إقامة قنصليات، الامتيازات القضائية اقامةمحاكم يقاضى فيها الأجانب دون العودة إلى المحاكم المحلية.

[2] المرجة، المصدر السابق، ص49.

[3] Bernard Lweis , The Arabs in History , Harperthorch books, New York , 1960, p166

[4] الداقوقي، المصدر السابق، ص 73

تاخر العلاقات بين البلدين الى ان بريطانيا ترجعها الى عوامل جغرافيـة وسياسـية، اذ تقـع الدولة العثمانية في ابعد نقطة عن بريطانيا، فضلاً عن انشغال الاخيرة بمشاكلها مع الفاتيكـان في النصف الاول من القرن السادس عشر([1]). كما أن بريطانيا كانت في منائ عـن الخطـر العثماني الذي وصل الى اوربا بسبب سيطرتها على البلقان ومحاصرتها لفيينـا، و لـم يكـن لبريطانيا حصة في التجارة المارة في البحر المتوسط بسبب سيطرة القوى الاوربية (فرنـسا، البندقية، جنوه، راجوزه) عليه، مما ابعد بريطانيا عن البحر لتتحاشى الاسطول العثماني فضلاً عن غارات القراصنة، كما ان اي تقارب عثماني- بريطاني كان سيثير حفيظة الدول الاوربية المتنافسه على التجارة في المتوسط، وبالتالي ستعمد هذه الدول على انكار هذا التقـارب بـين دولة مسيحية مثل بريطانيا واخرى اسلامية مثل الدولة العثمانية،وفي حقيقة الامر فان الدوافع كانت تجارية وليست دينية لان دخول بريطانيا الى البحر المتوسط يعنـي محاولـة لانهـاء المصالح الاوربية مع العثمانيين([2]).

توجهت انظار الطبقة التجارية البريطانية الى الشرق الغني بثرواته من اجل الوصول اليها، فضلاً عن التنافس البريطاني- الفرنسي على اسواق الشرق، الذي جعـل البريطـانيين يوجهون سفنهم نحوه، لغرض الوصول الى الهند بطرق جديدة تضمن لهم عدم التصادم مـع البرتغاليين أو البنادقة أوالعثمانيين وكان البرتغاليون قد احتكروا الممر المائي الى رأس الرجاء الصالح ([3]) .

ولم يكن التوغل العثماني في اوربا قد اثار حفيظة بريطانيا بقدر ماأثارتـه الـسيطرة العثمانية على سوريا ومصرعام 1516-1517 وبقية الاراضي العربية في وقت لاحق، فقـد سعت معظم الدول الاوربية من اجل الحصول على الامتيازات فيها ([4])، وقد تمكنت بريطانيا من الحصول على امتيازات امنية وتجارية في عهد السلطان مـراد الثالـث (1574-1595) الذي تسلم رسالة من الملكة اليزابيث الاولى (1558-1603)، والتي عبرت فيها عن رغبتهـا في توطيد العلاقات مع الدولة العثمانية، وكان رد السلطان الى الملكة البريطانيـة هـو مـنح التجار البريطانيين امتيازات في عام 1580، وتتضمن 22 فقرة منهـا حريـة التجـارة فـي الاراضي العثمانية واستثناء التجار البريطانيين من الضرائب الحكومية، وحـصول القناصـل والمترجمين البريطانيين على بعض الحقوق ذات االصفة القانونية فضلاً عن حمايـة الـسفن البريطانية خلال الحرب ([5]). وكان الهدف البريطاني من الحصول علـى هـذه الامتيـازات لضمان الطريق البري الذي يمر عبر العراق أو طريق البحر الاحمر ([6]). مما شجع التجـار البريطانيين على تأسيس عدد من الشركات التجارية، فقد بادرت شركة تجار لندن الى تاسيس

---

[1] Chew,S.C.,The Crescent and the Rose: Islam and England during the Renaissance,(New York,1957) p149
[2] Chew ,op.cit, P152
[3] Hakluyt Richard ,Principal Navigations, Voyages and Traffques and Discoveries of the English Nation,1903,II,p28
[4] Ibid ,vol,V,pp109-110
[5] ال صالح، المصدر السابق، ص 3.
[6] Chew ,op.cit, P152

شركة تركيا والشرق الادنى او شركة المشرق الليفانت فـي 11/ ايلـول 1581 اذ تمكنـت الشركة من ان تحصل من الملكة اليزابيث الاولى على حق احتكار التجـارة فـي الاراضـي العثمانية، وفي الوقت نفسه حصلت الشركة من الدولة العثمانية على امتياز بالحماية والامـن وحرية التجارة والتنقل للسلع والرعايا النصارى ومساعدتهم في ارجاء الدولة العثمانية كافـة، وقد استمرت الشركة في تجارتها مع الدولة العثمانية لأكثر من قرنين في الاستيراد والتصدير، اما في عهد الملك جيمس الاول (1603-1625) فقد تطورت العلاقات بين الجانبين، اذ اصدر تعليماته الى سفير بريطانيا في استانبول، يـامره بـضرورة حمايـة المـصالح البريطانيـة والنصرانية على حد سواء، ومما وسع هذه الصلات في عهد السلطان احمـد الاول (1603-1617)، اذ جددت الامتيازات الممنوحة لشركة الليفانت بناء على رغبة السلطان الـذي كـان يرمي الى ابعاد التجار البريطانيين عن التجارة مع بلاد فارس والتوجه الى الدولـة العثمانيـة وفي عهد الملك شارل الاول (1625-1649) عقد معاهـدة مـع الـسلطان ابـراهيم الاول (1640-1648) اعطيت بموجبها حرية التجارة لشركة الليفانت فـي جميـع انحـاء الدولـة العثمانية ([1])، اما شركة الهند الشرقية فقد حصلت على مرسوم من الملكة اليزابيث الاولى في 31/كانون الاول1600، منحت بموجبه حق احتكار التجارة البريطانية في الهنـد والاقطـار المجاورة لها وكان هذا الامتياز لمدة 55 عاماً ([2]). كما احتكرت التجارة في الهنـد والخلـيج العربي، ومنذ عام 1750 أصبحت تمارس العمل العسكري في تحقيق طموحـات بريطانيـا التجارية ([3]). وظلت التجارة هي المصدر الرئيس لبريطانيا في الدولة العثمانيـة، وحاولـت الشركات التجارية منذ بداية نشاطها تحاشي الالتزمات السياسية وتكريس جهودها الرئيسة في المجال التجاري، وان ظهرت بعض الالتزامات السياسية فانها كانت لتسهيل النشاط التجاري، فضلاً وجود تقسيم النفوذ بين شركتي الليفانت وشركة الهند الشرقية فـي الدولـة العثمانيـة فالاولى كانت تعنى بالمؤاني العثمانية في البحر المتوسط، في حين كانت شركة الهند الشرقية تعنى بالمؤاني العثمانية في الخليج العربي والبحر العربي والبحر الاحمر([4]).

ولابد من الاشارة هنا الى ان انفصال بريطانيـا عـن الكنيـسة الكاثوليكيـة بـسبب الاختلافات المذهبية في اوربا وتاسيس الكنيسة الانكليكانية التي تزعمت الحركة البروتستانتية في اوربا، مما جعل بقية الدول الاوربية تقف موقفاً مناهضاً لها، لاسيما وان اسـبانيا كانـت تسعى الى غزوها وانهاء طموحاتها في اوربا والشرق، لذا سعت بريطانيا الى عقد تحالف مع الدولة العثمانية([5]). و اتفاقية تجارية في عام 1838 ([6]).

1 ال صالح، المصدر السابق، ص ص4-6.

2 امين سعيد، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، (دار الكتاب العربي، بيروت،"د- ت")، ص 42.

3 محمد مظفر الادهمي، تاريخ اوربا في القرن التاسع عشر،(الجامعة المستنصرية،" د- ت ")، ص91.

4 ال صالح، المصدر السابق، ص10.

5 كاظم هاشم نعمة، الوجيز في تاريخ العلاقات الدولية،(بغداد،1990)، ص ص 91-94.

6 شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800-1914، ترجمة رؤوف عباس حامـد،(مركـز دراسـات الوحـدة العربية، بيروت، 1990)، ص ص630-631; J.c.Hurewitz , Diplomacy in the Near and Middle East: Adocumentary Record:1535-1914 , New York, 1956,vol,1,p110

كان الصراع البريطاني – الفرنسي حول السيطرة على طريق الهند والشرق الاقصى في بداية سبعينات القرن الثامن عشر والطرق التجارية بين الهند واوربا، و نتيجة هذا الصراع هو الغزو الفرنسي لمصر في عام 1798([1]). مما رسخ قناعة لدى بريطانيا بأهمية مصر كقاعدة للمواصلات والتجارة والتوسع لاسيما بعد افتتاح قناة السويس 1869([2]). فسعت الى توقيع تحالف دفاعي مع الدولة العثمانية في 5 كانون الثاني 1799، اذ اتفق الجانبان على حماية الممتلكات العثمانية من المشاريع الفرنسية، فضلاً عن اهداف بريطانية اخرى من التحالف، مما ادى الى منح السلطات العثمانية الافضلية للسفن التجارية البريطانية في دخول البحر الاسود في 30 تشرين الاول 1799 وهي بذلك اول قوة بحرية اوربية تحصل على ذلك([3])، وكان الاحتلال البريطاني لمصر عام1882، ادى بدوره الى الفتور في العلاقات العثمانية - البريطانية، وبدات الاولى بالبحث عن دولة اخرى تساندها وتعتمد عليها فوجدت ضالتها في المانيا، لان بريطانيا وفرنسا استحوذتا على اراضي عثمانية بينما المانيا لم تحتل اي جزء من اراضيها، اذ اعلن ساستها عن عدم وجود اطماع المانية في الاراضي العثمانية، وان هدفها اقتصادي فقط. وتمكنت المانيا خلال الحقبة الممتدة بين عامي 1888-1905 من ارساء سيطرتها على الدولة العثمانية سياسياً واقتصادياً، وحصلت على امتياز سكة حديد برلين – بغداد، في حين كانت جميع امتيازات انشاء السكك الحديدية في الدولة العثمانية لشركات بريطانية وفرنسية([4]). وكان للصراع بين الاحتكارات البريطانية والالمانية، له الدور الفاعل في زيادة حدة التناقضات وازدياد التنافس بينهما من اجل السيطرة على العالم، فضلاً عن الصراع الدبلوماسي بينهما، وبدأ كل منهما بالبحث عن حلفاء ليعزز موقعه، وبدأت التحالفات قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى، فتوجهت الدولة العثمانية نحو المانيا وتحالفت معها ([5])، ودخلت الحرب الى جانبها بموجب المعاهدة التي عقدت بينهما في 2 / أب/ 1914([6]).

[1] محمد عبد ا العزاوي، نشاط فرنسا السياسي في الخليج العربي والاجراءات البريطانية المضادة،مجلة الخليج العربي، السنة الرابعة عشرة، المجلد الثامن عشر، العدد3-4،،(مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1986)، ص ص35-40.

[2] ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (مطبعة جامعة الموصل، 1986)، ص ص323-324.

[3] ال صالح، المصدر السابق، ص ص 11-12.

[4] فواز مطر نصيف الدليمي، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق 1869- 1914، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب، جامعة بغداد، 1989، ص ص 150-160.

[5] للمزيد حول الصراع البريطاني الالماني انظر: أ.ج.ب.تايلر، الصراع على السيادة في اوربا 1848-1919، ترجمة كاظم هاشم نعمة ويوئيل يوسف عزيز، راجع النص العربي عبد الوهاب العدواني، (بغداد، 1980) ص ص 517-543.

[6] Hurewitz , op,cit: 1914-1955, vol 2, pp1-2

ب: بريطانيا والأقليات غير المسلمة في الدولة العثمانية

تمكنت الدول الاوربية بفعل الامتيازات التي حصلت عليها من اختراق البناء الاجتماعي للدولة العثمانية، وجعلت مكوناتها أسيرة شبكة من الولاءات المتنافرة.. باسم مصالحها القومية، وذريعة حماية الاقليات أو القوميات المضطهدة، من خلال المساعدات المادية للمؤسسات الدينية كما للسلطات المحلية المدنية، ومن خلال فتح المدارس، ومنح حمايات قنصلية لكبار التجار المحليين، ودفع رشاوي تحت اشكال متباينة للموظفين وولاة الاقاليم لقاء الحصول على امتيازات اقتصادية مثل رخص الاستثمار في مجال المناجم أو النقل أو انشاء مصانع.. الخ والواقع أن الدول الاوربية قد نسجت في شبه جزيرة البلقان كما في الولايات العثمانية الاخرى العربية أو الارمنية أو الكردية شبكة كثيفة من العملاء([1]). ومعظم هولاء من الطوائف غير المسلمة، إذ تمت الافادة منهم في مختلف النشاطات ابتداءاً من النشاط التجاري كوكلاء ومترجمين ومقاولين...وطوروا التجارة الاوربية لصالحهم، وقد ساعدهم في ذلك اندماجهم في جنسية الدولة التي تحميهم استناداً الى الامتيازات الاجنبية التي كانت تخول السفراء في العاصمة العثمانية منح خطابات او براءات حماية (برائتلي) يصدرها الباب العالي لعدد من الاشخاص يختارونهم لخدمتهم... وكان لكل سفير حق منح (50) براءة، علماً ان المنحة تتجدد عند كل تعيين جديد، مما ادى الى زيادة اعداد هولاء الذين يتمتعون بالرعاية الفرنسية والبريطانية والنمساوية وغيرها. ومثال على ذلك فان مدينة حلب في القرن التاسع عشر قد بلغ فيها عدد المترجمين (1500) مترجم رسمي يعملون في خدمة القناصل، ويتمتعون بكافة الامتيازات القانونية، ولم يكن بينهم مترجمون فعليون سوى ستة فقط.كما سعت الدول الاوربية الى ترسيخ النزعة الطائفية، اذ عملت على دعم التجار غير المسلمين مستفيدين من نظام الحماية والامتيازات الاجنبية على حساب التجار المسلمين التقليديين([2]).

كان السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) يرى، أن الحروب الصليبية على الدولة العثمانية مستمرة ودائمة، وقد أتخذت أشكالاً مختلفة وسرية، وان بريطانيا تعمل على وضع العراقيل امام الدولة العثمانية ولا تسمح لها بحل مشاكلها،وكان السلطان عبد الحميد يقول ((الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة))، وكان يرى أن بريطانيا افسدت عقول الشعوب بالقومية من اجل تحقيق مصالحها وهذا مافعلته في مصر والبلقان. والمخطط البريطاني جعل الاماكن المقدسة للمسلمين تحت سيطرتها، لغرض أضعاف تأثير الإسلام وتقوية نفوذها([3]).

1 جورج قرم، اوربا والمشرق العربي من البلقنة الى اللبننة تاريخ حداثة غير منجزة، (بيروت، 1990)، ص ص 82-99.

2 الداقوقي، المصدر السابق، ص74.

3 مذكرات السلطان عبد الحميد،المصدر السابق، ص ص 7-8.

ولغرض توضيح الدور البريطاني في دعم الاقليتين النصرانية واليهودية في الدولة العثمانية من اجل تحقيق مصالحها سنعرضها على النحو الآتي:

أولاً - النصارى:

انتشر النصارى في ربوع الدولة العثمانية وكانوا يشكلون النسبة الاكبر في كل من بلاد الشام وارمينيا والبلقان، وقد سعت بريطانيا كغيرها من الدول الاوربية الى تسخير الطوائف لخدمتها من خلال دعمها ضد الطوائف الاخرى أو ضد السلطة العثمانية، بالشكل الآتي:

1- بريطانيا والنساطرة:

النساطرة هم من انشقوا عن الكنيسة الرومانية واتبعوا نسطور بطريرك القسطنطينية (428-430م) ([1])، فضلاً عن انفصالها عن كنيسة روما الكاثوليكية نهائياً عام 496م، واقر المجمع النسطوري الذي عقد في مدينة سلوقيا النسطورية مذهباً رسمياً لمعتنقيه([2]). وانتشرت تعاليم نسطور حتى غدت النسطورية المذهب السائد بين النصارى القاطنين في بلاد فارس والعراق والمناطق الجبلية الكردستانية، لاسيما في قضاء جولميرك في سنجق هكاري التابع لولاية وان في جنوب شرق الاناضول([3]). وقد عاش النساطرة في مواطنهم شبه مستقلين لاتربطهم بالدولة العثمانية غير دفع الجزية واستمروا على هذا الوضع حتى عام 1850. ومن الجدير بالذكر ان النساطرة يطلقون على انفسهم بالسريان الشرقيين،وهي التسمية التي كانوا يفضلونها، اما تسمية الاثوريون فقد جاءت بعد الاكتشافات الاثرية للقنصل الفرنسي في الموصل بوتا (1802-1870) في عام 1843، والبريطاني هنري لايارد (1817-1894)، وله كتاب نينوى وبقاياهاعام 1845 الذي توصل في كتابه هذا الى ان النساطرة هم يمثلون احفاد الاشوريين، لذا استغلت الحكومة البريطانية تلك التنقيبات الاثرية من اجل التغلغل بين النساطرة بذريعة انهم يتعرضون الى الاضطهاد من قبل الامير بدرخان (1821-1847) امير امارة بوتان وخلفائه. لأجل التأثير على الباب العالي بوساطة السفير البريطاني ستانفورد كاننك. ومن الجدير بالذكر ان الحكومة البريطانية لم تكن تولي اهتماماً بالطوائف والاقليات النصرانية، ولاسيما النساطرة في الدولة العثمانية، وانما اسندت لوكلائها السياسيين مهمة مراقبة النشاط التبشيري الكاثوليكي الفرنسي في الولايات العثمانية، وكان لدى الحكومة البريطانية تصور كامل بان كل موظف فرنسي، مبشر كاثوليكي في الوقت نفسه، وان كل البعثات الكاثوليكية متمتعة بالحماية الفرنسية، وبمجرد انهيار الدولة العثمانية فان فرنسا ستجد في هولاء المبشرين قوة سياسية تعينهم على وضع يدها على اكبر رقعة من الدولة العثنانية

---

[1] البستاني، المصدر السابق، ص 91.

[2] رياض ناجي الحيدري، الاثوريون في العراق 1918-1939، (القاهرة، 1977)، ص 36.

[3] رؤوف، المصدر السابق، ص ص 339-340.

منافساً بذلك بريطانيا، لذا تولدت لدى البريطانيين قناعة بعدم جدوى الاسـاليب الدبلوماسـية للحد من النشاط التبشيري الفرنسي، لذا لابد من القيام بنشاط تبشيري مقابل للنشاط التبـشيري الفرنسي وتعمل بنفس الاسلوب الفرنسي بين صفوف النصارى وسـيكون نشـاط تبـشيري بروتستانتي، لذا بدأ النشاط التبشيري البروتستاني يغزو العراق اعتبـاراً مـن عـام 1829-1832، وعلى الرغم من ازدياد التنافس البريطـاني – الفرنـسي التبـشيري الا ان النـشاط التبشيري البريطاني لم يمتد نفوذه بين النساطرة حتى اواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر([1])، ويعود السبب في هذا التاخر الى وجود النساطرة في المناطق الجبلية الوعرة، فضلاً عن قلـة اعدادهم التي لايستحق ارسال بعثات تبشيرية من اجلها، لكنها اتخذت قرارها بارسال البعثات اليهم من اجل توسيع نفوذها في الدولة العثمانية، وخلق الفتن بين السكان النساطرة والمسلمين ولاسيما الاكراد لايجاد مسوغات للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية([2]).

ومن اجل تحقيق بريطانيا لاهدافها تم ارسال بعثات تبشيرية تقوم بزيارات مكثفة مـن قبل العلماء والسياح والدبلوماسيين والعسكريين البريطانيين، وكان جل اهتمامهم اثارة المشاكل والتوتر بين النساطرة والاكراد لغرض تسهيل مهمتهم والتغلغل بين الطرفين، ودفع النساطرة للدخول تحت الحماية البريطانية، ودفعهم لطلبها([3]).

2- بريطانيا والحرب الاهلية اللبنانية (1840-1860):

بعد خروج المصريين من لبنان على أثر التدخل الأوربي، حـدثت مواجهـات بـين الدروز([4]) والموارنة([5])، وسرعان ما تحول الى صراع دار بـين الطـرفين للاعـوام مـن 1840-1860 التي اشتهرت مذابحه (بمذابح الستين)، ونشطت قوى داخلية وخارجية لتـاجيج هذا الصراع. وكان للدول الاوربية دورها الفاعل في اذكاء الصراع من خلال قناصـلها فـي الشام واستانبول ولاسيما قناصل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا. فقد شـهدت هـذه الفتـرة تنافساً اوربياً في لبنان([6])، وعلى قدر تعلق الامر ببريطانيا فقد كان لها الدور الاكبر في اعادة

---

1 ال صالح، المصدر السابق، ص ص 140-145.

2 عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث،(القاهرة، 1968)، ص 311.

3 ال صالح، المصدر السابق، ص ص 146-150.

4 الدروز: هي فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر ا ، أخذت جل عقائدها من الإسماعيلية، وهي تنتسب إلى نـشتكين الدرزي، نشأت في مصر لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنهـا تـؤمن بـسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس، ولا تعلمها لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين. غالبيتهم العظمى في لبنان ونسبة كبيـرة مـن الموجودين منهم في فلسطين المحتلة قد أخذوا الجنسية الإسرائلية وبعضهم يعمل في الجيش الإسرائيلي. نفوذهم في لبنـان الآن قوي جداً تحت زعامة وليد جنبلاط ويمثلهم الحزب الإشتراكي التقدمي.للمزيد انظر: الكيالي واخرون، المصدر السابق، ج2،ص ص676-677.

5 الموارنة:تنتمي هذه الطائفة الى كنيسة القديس مارون الناسك، الذي عاش على قمة جبل قورش بسوريا حتى عام 410 م ونتيجة للظروف السياسية والدينية نزح اتباع هذه الطائفة من سوريا الحالية الى شمالي لبنان عام 634 م وترتبط هذه الطائفـة كنـسيا بكنيسة روما وهم كاثوليك، يبلغ تعدادهم عالمياً مايزيد على 7 ملايين نسمة يتركزون في لبنان والبرازيل والارجنتين.
بولس صفير، الكنيسة المارونية في لبنان والعالم، مجلة الفكر المسيحي، كنيسة مار توما، الموصل العددان 271و272 كـانون الثاني وشباط 1992 ص ص 10-20.

6 وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية – السياسية في جبل لبنان والمشرق العربـي 1860- 1920(معهـد الانمـاء العربـي، بيروت،1976)، ص 39.

سوريا وفلسطين الى الدولة العثمانية بعد الزام محمد علي والي مـصر بمعاهـدة 1840([1])، وبموجب المعاهدة البريطانية - العثمانية بلطة ليمان 1838، فتحت ابواب الدولة العثمانية امام التجار الانكليز، التي خففت عن تجارتهم الضرائب الكمركية([2])، وتدفقت البضائع الانكليزيـة الى الولايات العثمانية، وقد استوعبت الاسواق الشامية كميات متزايدة منها، وغـدت اعـداد السفن البريطانية التي تصل الى المؤاني اللبنانية اكبر من بقيـة الـدول الاوربيـة الاخـرى مجتمعة. ولاشك أن وجود الامير بشير الثالث في الحكم (1840-1842م)، الذي تولى الامارة بتوصية من الانكليز، كان مفيداً جداً لتنمية التفوق التجاري البريطاني، كما ساعد علـى هـذا التفوق وجود القنصل البريطاني الكولونيل روز (Roz) في بيروت لما امتاز بـه مـن دقـة وحنكة، ونشاط كبير في متابعة المصالح البريطانية، فضلاً عن الحظوة التي كان يتمتـع بهـا لدى الدوائر الشهابية([3]) والعثمانية في الشام. ناهيك عن دور السفير البريطاني في اسـتانبول السير سترتفورد كاننك 1842–1848 (اللورد ريد كليف فيما بعـد) ذو القـوة الدبلوماسـية الفاعلة، والذي كان يطلق عليه في اللغة التركية ((بيوك إيلجي – أي السفير الكبير)) باعتباره أكبر السفراء في إستانبول، وأوسعهم نفوذاً، فضلاً عن تسميته بـ(سلطان تركيا غير المتوج) من قبل بعض معاصريه، لما عرف عنه من السيطرة على السلطان عبـد المجيـد، وكـان كاننك لا يتردد من التدخـل في شؤون الدولة من أجل الهدف الذي سعى إليه([4]). ولعل اهـم امر ساعد الدبلوماسية البريطانية على النجاح هو السرعة في اتخاذ القرار على العكـس مـن نظيرتها الفرنسية المتشبثه بالبيرقرطية المقيدة للدبلوماسية([5]).

وعلى الرغم من الموقف السلبي الفرنسي من الموارنة أبان الحكم العثماني- المصري للبنان، الا ان ذلك لم يؤثر على عاطفتهم المذهبية تجاه باريس، فقد كانوا باشد الحاجـة الـى السلاح والذخائر لكنهم رفضوا العرض البريطاني بتقديمها لهم، كما رفض اميرهم حيدر ابـو اللمع بشدة فكرة طلب الحماية البريطانية.وذلك لاستشعار نصارى جبل لبنان بسعي بريطانيـا الى التبشير بالبروتستانتية في لبنان، اذ ازداد عدد المبشرون الانكليز والامريكان في ثلاثينيات القرن التاسع عشر واربعينياته، مما اثار رجال الدين الموارنة والجزويـت وكـذلك الـروم الارثذوكس، واتخذ البطرياك الماروني اجراءات مشددة ضد المبشرين البروتستانت. مـع ان

---

[1] انظر نص المعاهدة: Hurewitz , op,cit ,vol,1 ,p 116

[2] انظر نص المعاهدة: Ibid , p 111

[3] تنصر امراء الامارة الشهابية، وما نتج عن هذا التنصر من خلل في التركيبة الاجتماعية والاقتصادية في الامارة اذ ازدادت قوة الموارنة بسبب تنصر الشهابين واتفقوا على معاداة الدروز. وعندما تسنم الامير يوسف شهاب الحكم 1770-1789 لاول مرة في تاريخ الامارة حاكم نصراني تنفس الاكليروس الماروني الصعداء بعد قرون من حكم المسلمين والدروز، وعده الموارنـه كسبا لايمكن التنازل عنه. للمزيد انظر: منير اسماعيل، التحولات السياسية في مجتمع الإمارة الـشهابية 1697- 1842، فـي لبنان في القرن الثامن عشر، المؤتمر الأول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية،ط1، (دار المنتخب العربي، بيـروت، 1996)، ص ص 91-92.، للمزيد حول الاسرة الشهابية وحكمها في لبنان ينظر: فيليب حتي، تاريخ لبنان، ترجمة انيس فريحة مراجعة نيقولا زيادة، ط2، (دار الثقافة، بيروت، 1972)، ص ص 468-481.

[4] سليمان محمد الغنام، التنافس الدولي في منطقة الخليج العربي 1891–1914، (وزارة الخارجية السعوديـة، معهد الدراسـات الدبلوماسـية، الكتاب السنوي 1402هـ)، ص10.

[5] للمزيد ينظر: احمد طربين، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الاسرة الشهابية 1842-1861، (دمشق،1976).

الانكليز كانوا يسعون بان تكون علاقاتهم متوازنة مـع الـدروز والموارنـة، الا ان علاقـة الموارنة كانت اقوى مع فرنسا، التي أبعدت بريطانيا وشدت اليها الدروز الباحثين عن اقامـة دولة لهم، مما جعلهم يوازنون علاقتهم بالدروز مع علاقة فرنسا بالموارنة. ونتيجـة لتطـور العلاقات بين الفرنسين والموارنة ازدادت العلاقات البريطانية مع الدروز وعقد تفاهم بريطاني - درزي في عام 1841 نص على:

1. أن يدافع الإنكليز عن مصالح الدروز.
2. أن يتعلم أبناء الدروز في المعاهد الإنكليزية، في بريطانيا.
3. أن تطلق الحرية للمبشرين البروتستانت للعمل في المناطق الدرزية.

وهكذا عادت سياسة المحاور الى لبنان، فكان المحور الفرنسي- الماروني والمحـور البريطاني- الدرزي. أما العثمانيون فكانوا يدعون بالشرعية وانهم فوق المحاور، لكن قدراتهم كانت محدودة ([1]).

ارادت الدول الاوربية ايجاد نظام حكم في لبنان يبعد فيه الحكم العثمـاني المباشـر، ويحقق اهداف الدروز والموارنة ومصالح الدول الاوربية معاً، مما ادى الى ظهور عدداً مـن المشروعات العثمانية والفرنسية والنمساوية،أما الإنكليز فقد كونوا فكرة عن نظام الحكم فـي لبنان ملائم للمصالح البريطانية، في الوقت نفسه سعوا الى عدم اظهار ذلك، وجعله يبدو وكأنه من الجماعة الاوربية، وبذلك تكون القضية اللبنانية قد اخذت شكلاً دوليـاً رسـمياً. أذ تقـدم المستشار النمساوي كليمنس فينزل مترنيخ (1773-1859م) بمـشروع هـو فـي الأسـاس بريطاني، فقد اعترف بالطائفية في جبل لبنان من خلال تقسيم البلاد الى وحـدتين اداريتـين قائممقاميتين الأولى درزية في النصف الجنوبي والاخرى مارونية في النصف الـشمالي مـن الجبل([2])، وعكس المشروع هذا وجهة النظر البريطانية على النحو الاتي:

1. استبعد المشروع عودة ال شهاب الى الحكم، وهو بعيـد عـن التوجهـات الفرنـسية والمارونية وقريبة من توجهات الدروز حلفاء بريطانيا.
2. اعطى المشروع للدروز والموارنة كياناً قائماً بذاته.
3. وجه رئيس الحكومة الفرنسية اتهامات الى نظيرة النمساوي، بأخـذه بوجهـة النظـر البريطانية من أجل كسب التأييد البريطاني لها حول السيادة على روما.
4. استبعد المشروع الروس، الذين ابدوا رغبتهم في مساعدة العثمانين وحل مشكلة الـروم الارذثوكس، واضطرت روسيا القيصرية بقبول المـشروع الـذي لـم يـذكر الـروم الارثذوكس، وهذا ماكان تبتغية الدول الاوربية اذ اصبحت هذه الطائفة هدف البعثـات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية([3]).

---

[1] الحرب الاهلية البنانية، موسوعة مقاتل من الصحراء.www.moqatel.com/openshare/indexf.html

[2] حتي، المصدر السابق،ص ص 537-544.

[3] موسوعة مقاتل من الصحراء www.moqatel.com/openshare/indexf.html

وفي عام 1860 ازدادت الازمات بين الدروز والموارنة وسارعت الدول الاوربية الى اذكاء الصراع بينهما. وبعد توتر الاوضاع في لبنان شكلت لجنة دولية لحل الازمـات بـين الجانبين([1])، من الدول الاوربية الخمس بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وبروسيا وممثل عن الدولة العثمانية ولبنان وبعد المداولات تم الاتفاق على الغاء نظام القائممقاميتن واحلال نظـام المتصرفية محله، وكانت وجهة النظر البريطانية أن يطبق نظام حكم خاص في لبنان، في ظل التبعية العثمانية، الا ان العثمانيين رفضوا التوجه البريطـاني. ومنـذ ذلـك الحـين بـدأت الصراعات الدولية والمحلية حول تعيين الحاكم في لبنان([2]).

3- موقف بريطانيا من المسألة الارمنية

تعد المسألة الارمنية([3]) واحدة من اعقد المشاكل التـي واجهتهـا الدولـة العثمانيـة، واتخذتها الدول الأوربية ذريعة للتدخل من اجل تحقيق مآربها ومصالحها الخاصة. وبموجـب ماجاء في المادة 61 من مقرارات معاهدة برلين عام 1878 على اجراء اصلاحات في ارمينيا من قبل الدولة العثمانية([4])، والبيان الصادر الى الدول الاوربية بمراقبة الاصلاحات، ارسـلت بريطانيا مندوبين للاطلاع على اوضاع الارمن وتقديم تقريرمستوفٍ عنهم([5]). لكن بريطانيـا ادركت بان موقفها المساند للأرمن سوف يؤدي الى تعاظم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، فضلاً عن عدم مساندة الدول الاوربية الاخرى لبريطانيا في متابعة الاصلاحات في ارمينيـا، لاسيما وان المستشار الالماني بسمارك سعى الى حمل الدول الكبرى الـى مـساندة الدولـة العثمانية([6]) وأعلم بصراحة الحكومة البريطانية بقوله (أن المانيا لن تكترث الى الاصـلاحات في ارمينيا وبالتالي فهي توافق على وضع المسألة على الرف)([7]). كمـا أعلـن أن معاملـة الأرمن والمسيحيين الآخرين القاطنين في الدولة العثمانية تعتبر شأناً مـن شـؤون المجتمـع الدولي، وانتشرت بكثرة القنصليات في الولايات الاسيوية لمراقبة حالة وظـروف الطوائـف المسيحية، ولحماية المبشرين ومراقبة بعضهم البعض([8]).

1 هنري لورانس، اللعبة الكبرى المشرق العربي والأطماع الدولية،ترجمة عبد الحكيم الأربد مراجعة د. رجب بودبوس، ص 20، على شبكة المعلومات الدولية. aslimnet.free.fr

2 حتي، المصدر السابق،ص ص 533-536

3 للمزيـد انظـر:(Sadi Kokas, Senator, Ermeniler Ve Turk-Ermeni Liskileri, ikinci Baksi, (Ankara,1967 مجلة تاريخ الحرب العظمى،م 3،ج 5، ص 85.

4 انظر نص المادة 61 من معاهدة بـرلين: Berlin Kongresine Gore Elviye-iselase Ve Begazlar Russia and the Balkans, p668

M.S.Anderson, The Great Powers and the Near East 1774-1923 Documents of Modern History (London,1970), pp98-101

5 Enver Ziya Karal, Armenian Question 1878-1923, Translated to Engilsh: Sekip Engineri ,(Ankara,1975),p7

6 Karal, opcit , p7

7 جون هاسلاب، السلطان الاحمر، تعريب فيليب عطا ا ، (بيروت، " د- ت")، ص243.

8 جون س. كيست، الحياة بين الكرد.. تاريخ الايزيبين، ترجمـة عمـاد جميـل مـزوري، (دار سـبيريز للطباعـة والنـشر، دهوك،2005)،ص281

وعلى الرغم من ذلك وازاء التطورات التي حدثت في الدولـة العثمانيـة والمـسألة الارمنية أتفقت الدول الكبرى بما فيهم بريطانيا على حل المـسألة الارمنيـة، وابلـغ رئـيس الوزراء البريطاني سالوزبري عام 1895 السفير العثماني في لندن رستم باشا بضرورة تقبل الدولة العثمانية الطروحات البريطانية([1]). وسعت بريطانيا الى اجراء اصلاحات في ارمينيـا. وبعد الاتفاقية البريطانية – الروسية في عام 1907([2])، أتخذت المسألة الارمنية ذريعة للتدخل في شوؤن الدولة العثمانية([3]).

4- بريطانيا و دول البلقان:

تمخضت الحروب النابليونية في اوربا الى ايقاظ الروح القوميـة لـدى العديـد مـن الشعوب الاوربية، لاسيما تلك الخاضعة للدولة العثمانية مثل اليونان والبلقـان ([4])، اذ كانـت نقطة التحول في الاهتمام الاوربي بشكل عام وبريطانيا بشكل خاص بهذه الـدول لان الـدول العثمانية المسلمة تقف على طرفي نقيض من اوربا وتقاليدها وتدين بالنصرانية، فقد سـاندت الدول الاوربية اليونان وعلى راسها بريطانيا من اجل الاستقلال عن الدولة العثمانية المسلمة، اذ اصبحت مسألة استقلال اليونان قضية اوربية، وجمعت الحكومـات الاوربيـة التبرعـات لمساندتها، فضلاً عن جمع المتطوعين في حملة صليبية ضد العثمانيين([5]). كانـت بريطانيـا اولى القوى الاوربية التي وجهت انظار محمد علي باشا الى بلاد الشام بوصفه حـلاً بـديلاً للتدخل المصري في حرب الثورة اليونانية. ولم تقف بريطانيا عائقاً امام احتلال محمد علـي لبلاد الشام على الرغم من دعوات السلطان العثماني بريطانيا لمنع ذلك. وقد يكون ذلك عائداً الى وجود الخطر الروسي ومحاولتة السيطرة على استانبول، الامر الذي دفع بريطانيـا الـى تفضيل وجود محمد علي باشا على كرسي السلطنة على النفوذ الروسي الـذي ينتـزع مـن السلطان العثماني استقلاله الداخلي والخارجي([6]).

يكمن تهديد المصالح البريطانية في الصراعات التي كانت في البلقان، هو التأثير على مواقعها البحرية، اذ حرصت على ابقاء المضايق تحت سيطرتها منذ القرن التاسع عشر، كي تضمن مصالحها التجارية وتضمن توازن مكانتها مع القوى الاخرى، أذ لديها سـفن تجاريـة تجوب المضايق، الاان سلسلة الازمات التي عصفت بالمنطقـة مـابين عـامي1911و1914 أخذت تهدد المصالح البريطانية، وذلك لقيام الدولة العثمانيـة بغلـق المـضايق، ممـا دفـع

---

1 سعيد باشا خاطراتي، (دار سعادت، استانبول، 1328)، ص 271.

2 تم توقيع الاتفاقية بين الجانبين البريطاني والروسي في 31/اب/1907،اذ تم الاتفاق بينهما حول افغانستان والتبت وبلاد فارس والخليج العربي، انظر نص الاتفاقية: Hurewitz,Op.Cit,Vol.1,pp265-267

3 للمزيد انظر أ. استارجيان، تاريخ الامة الارمنية، (موصل، 1951)، ص ص 328-329.

4 للمزيد حول استقلال اليونان انظر: الادهمي، المصدر السابق، ص ص 258-266.

5 John Purkis,The Word of Enghlish Romantic Poets, Heinemann, 1982, pp181-182

6 ال صالح، المصدر السابق، ص 37.

البريطانيون الى ممارسة الضغوط على العثمانيين من اجل فتح هذه المنافذ للسفن التجارية والحربية حتى ولو بصورة مؤقتة([1]).

أما فيما يتعلق في الحروب البلقانية عام 1912-1913([2]) فقد تباينت مواقف الدول الاوربية من تلك الحروب الاولى والثانية. فقد ادهشت الانتصارات السريعة لدول البلقان وعلى مدى شهرين الدول الاوربية على الرغم من تباين مصالحها واهدافها. ومايهمنا هو الموقف البريطاني، اذ لاقت الانتصارات لدول التحالف البلقاني تأييداً وحماساً كبيرين في بريطانيا. وعبر بعض اعضاء الحكومة البريطانية عن سرورهم بهذه الانتصارات، واشار وزير الخارجية البريطاني كري بعد وصول القوات البلغارية الى خطوط جاتالجا بقوله (أنه ليس من العدل حرمان الظافر من ثمار انتصاره)([3]). ومع ذلك أرتات وزارة الخارجية البريطانية عدم أظهار التعاطف الرسمي تجاه العصبة البلقانية خشية إثارة مشاعر رعاياها من المسلمين لأسيما في الهند. أو ربما موقفها المساند لهم قد يدفع بالعثمانيين الى التوجه نحو المانيا والاعتماد عليها بشكل كلي، فضلاً عن قيامها باحباط أي عمل تقوم به أية دولة اوربية بهدف حرمان دول البلقان من الأراضي التي احتلتها. وقد أكد ذلك أسكويث رئيس الوزراء البريطاني في خطابه الذي القاه في 19/ تشرين الثاني/1912([4]). وقد هدفت الخارجية البريطانية من سياستها هذه تجاه البلقان المحافظة على المحفل الاوربي، والتاكيد على الدول الاوربية الالتزام بتعهداتها وعدم تحقيق مكاسب فردية مما يؤدي الى انهيار المحفل الاوربي. وكان القلق البريطاني الرئيس يتمثل في الخشية من النمسا- المجر، من سعيها وراء تحقيق مكاسب في البلقان، أوتمنع صربيا من الحفاظ على المكاسب التي حققتها في الحرب، وبما ان الاهتمام البريطاني كان منصباً على تعزيز المحفل الاوربي، وعدم السماح للبلغار التوجه الى استانبول، لذا رحبت بريطانيا بالتعاون مع المانيا من اجل ذلك،وبدأت المباحثات تجري بين دول الوفاق والتحالف الثلاثي في القضايا ذات الاهتمام المشترك([5]).

ثانياً – اليهود:

منحت الدولة العثمانية اليهود الساكنين على اراضيها التسامح والحرية وفرصة للتخلص من الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه في ظل الامبراطورية البيزنطينة التي كانت

[1] Marian Kent, The Great Powers and the end of the Ottoman Empire,(London,1984),pp184-185

[2] M.S.Anderson, The Eastern Question1774-1923 (New York , 1974), pp293-294

[3] Quoted in Edib , Halide , Memoires of Halide Edib, (New York , 1970), p33[3] رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ط5، (القاهرة،1990)، ص 31.

[4] علي هادي عباس، الحروب البلقانية 1912-1913 دراسة تاريخية، اطروحة دكتوراره غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب جامعة الكوفة، 1997،ص103.

[5] المصدر نفسه، ص ص 104 -105.

تعاملهم كمنبوذين، ومارسوا حياتهم الخاصة كما يشاءون، وكانت الدولة العثمانية تـضم منـذ القرن الخامس عشر سكاناً يهوداً وعلى شريحتين هما: الجماعات اليهوديـة الموجـودة فـي القسطنطينية منذ العهد البيزنطي، واليهود المهاجرين بعد قرار طردهم من اسبانيا عام 1492 وقد استقبلتهم الدولة العثمانية بتسامح لانها تتبع التعاليم الإسلامية فضلاً عـن عـدم وجـود التعصب والعنصرية.

قبل البدء في الحديث عن الدور البريطاني في مساعدة اليهود في الهجرة الى فلسطين وتمكينهم من الاستيطان فيها، ودعمهم في انشاء وطن قومي لهم، لابد من الإشارة الى معاملة البريطانيين لليهود المقيمين في بريطانيا كما وصفها أحد الوزراء في الحكومـة البريطانيـة، وهو في الاصل يهودي بقوله أن الحياة التي عاشها اليهود البريطـانيون، والأهـداف التـي وضعوها نصب اعينهم، والدور الذي لعبوه في حياتنا العامة ومؤسساتنا، يجعل من حقهـم أن يعتبروا بريطانيين يهوداً أكثر منهم يهوداً بريطانيين، أنني على استعداد لحرمان كل صهيوني من الحقوق المدنية، بل أنني أجد دافعاً لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارهـا غيـر قانونيـة وضارة بالمصالح الانكليزية ([1]). وأكد المساعي البريطانية لتوطين اليهـود الـصهاينة فـي فلسطين للتخلص منهم.لذلك جاءت السياسة البريطانية تجاه اليهود على النحو الآتي:

1- الدعم البريطاني لليهود في الهجرة الى فلسطين:

كان أول تنفيذ عملي لفكرة الهجرة اليهودية الى الاراضي العثمانية والاستيطان فيهـا، وفلسطين تحديداً عام 1837 على يد اليهودي البريطاني الثري "موسى مونتفيـوري" 1784-1885([2]) وكان محمد علي والي مصر قد عرض عليه أن يؤجر لليهود مئة أو مئتـي قريـة لمدة خمسين عاما حرة من الضرائب، والسماح بارسال خبراء لتدريب اليهود أعمال الزراعـة والصناعة، وفي المقابل تعهد مونتفيوري لمحمد علي باقامة شبكة من البنوك االبريطانية فـي المدن الرئيسة في مصر وسوريا وفلسطين([3]) كما تعهد له محمد علي بالترخيص لليهود فـي شراء أية مساحة يجدونها في سوريا، وظل تأييد محمد علي حتى زوال حكمة عـن سـوريا وعودتها الى الدولة العثمانية وفق شروط معاهدة عـام 1840، وكانـت ضـربة لمـشروع مونتفيوري([4]).

---

[1] احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ط2، (دمشق، "د- ت")، ص ص 374-379.

[2] موسى مونتفيوري: يهودي بريطاني الجنسية، من أشد المتحمسين لمشروع استعمار فلسطين، كان يحظى برعاية خاصـة مـن الملكة فكتوريا، زار فلسطين عدة مرات واقام في مصر وقابل محمد علي في عام 1838 خلال فترة حكمه لسوريا وفلـسطين 1831-1841، وتدخل في حوادث الفتن والقتل التي ارتكبها اليهود في سوريا وفلسطين للفترة 1840-1860 لتبرئتهم منهـا. حسان علي حلاق،موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ط2، (دار الهدى، بيروت، 1990)، ص ص 46-47

[3] امين عبد ا محمود،مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالميـة الاولـى، المعرفـة 74 (الكويت، 1984)، ص46.

[4] سوسة، المصدر السابق،ص ص 720-721.

ويرجع تاريخ اول محاولة استيطانية لهم في القدس الى عام 1859 عندما اقيم أول حي يهودي خارج سور القدس وسمي انذاك باسم "يمين موشي" نسبة الى مونتفيوري الذي حصل على فرمان عثماني عام 1855 بشراء اول قطعة ارض في القدس لاقامة مستشفى عليها لكنه اقام بدلاً عنها، مساكن شعبية لليهود اصبحت نواة الحي اليهودي في القدس خارج سور البلدة القديمة([1]).

وعلى الرغم من قيام الحكومة العثمانية في عام 1882 باصدار قانون للحد من الهجرة اليهودية فقد تراجعت عن المشروع في تنفيذه العملي بفعل ضغوط كل من بريطانيا وفرنسا فتمكن اليهود من الهجرة الى فلسطين وانشاء المستعمرات الزراعية والمؤسسات الدينية والخيرية والعلمية([2]). وفي عام 1887 أصدرت الحكومة العثمانية الأوامر الأولى بشأن هجرة اليهود الى فلسطين، وكانت هذه الاوامر موجهة إلى حاكمي القدس ويافا، اذ سمحت لليهود بالدخول الى البلاد كحجاج أو زوار فقط، وكان على كل يهودي يصل الى يافا ان يدفع 50 ليرة تركية كتعهد لمغادرتها خلال 31 يوماً. وقد بررت الدولة العثمانية هذا المنع بسبب مايلحق البلاد من اضرار على الأوضاع الصحية وعلى اوضاع الامن العام([3]).

بدأت الصلة بين اليهود والدولة العثمانية تتراجع، وذلك بسبب فرض الحكومة العثمانية ضريبة الوجود التي الزمت فيها الاقليات، وكانت تلزم المسلمين بدفع 5% واليهود 10%، ادى ذلك الى تدهور اوضاع اليهود اذ اضطروا لبيع ممتلكاتهم من اجل تسديد هذه الضريبة، ومن يمتنع عن الدفع يرسل الى معسكر الاعتقال([4]). فضلاً عن قيام الدولة العثمانية باصدار تعليمات الدخول الى اراضيها. بموجب "نظام شروط الدخول" المنشور بتاريخ 21 تشرين الثاني 1900، تم الشروع في تطبيق نظام "جواز السفر الأحمر" من أجل منع دخول اليهود إلى فلسطين. وحينما حاول بعض اليهود الامريكان والبريطانيين الذين كانوا يقيمون في الدولة العثمانية الحصول على بعض الحقوق والامتيازات الخاصة بهم، تم اجبارهم على المغادرة ليعيشوا في الدول التي يحملون جنسياتها. فضلاً عن ان "قانون الأراضي العثمانية" الصادر عام 1858 لم يكن يمنع قيام اليهود بشراء أراضي في فلسطين. وعلى الرغم من أن القانون الجديد الصادر في 1882 كان يمنع اليهود الأجانب من شراء الأموال غير المنقولة في الدولة العثمانية، إلا أنه لم يأت بأي حكم يمنع اليهود من مواطني الدولة العثمانية من فعل ذلك. لهذا السبب، قامت المنظمات الصهيونية بدفع الاموال إلى اليهود المحليين، وأمنت لهم شراء مساحات كبيرة من أراضي المنطقة([5]).

---

[1] شاكر، المصدر السابق، ص 97.

[2] الوثيقة العثمانية.(Y.PRK.AZS 27/39-1311-5-1) ، المحفوظة في الارشيف العثماني، في استانبول، ص1

[3] درويش، المصدر السابق، ص233.

[4] المصدر نفسه، ج2، ص11.

[5] الوثيقة العثمانية (Y.PRK.AZS 27/39-1311-5-1) ، ص 1.

ولم تتوقف الهجرة اليهودية الى فلسطين، في ثمانينيات القرن التاسـع عـشر بـسبب التطورات الداخلية والخارجية للمنطقة والاوامر الصادرة من الحكومة العثمانية، بـل كانـت الحركة الصهيونية تتعايش معها وتوظفها لصالحها، فقد وصل عدد المهاجرين اليهـود الـى فلسطين، في عام 1882 الى حوالي 25 الف يهودي معظمهم أسر محدودة الإمكانيـات مـن رومانيا وروسيا، ووصل عدد المستعمرات الى 5 أما عدد العاملين في الزراعة كـانوا 500 يهودي. وفي عام 1890 بلغ عدد المهـاجرين اليهـود 107,100 وعـدد المـستعمرات 14 مستعمرة، والعاملين في الزراعة2,770([1]).

كانت الصهيونية حتى منتصف القرن التاسع عشر مقتصرة على غير اليهود فقد كـان اولئك الذين اختاروا مناصرة الشعب اليهودي يفعلون ذلك بدافع شخصي وليس بالتعاون مـع اليهود ومن المعروف ان الصهيونية نشات في اوروبا لا في فلسطين. ان الدور الاوروبي في خلق الصهيونية كان اكبر كثيراً مما يظهر لنا عبر الكتابات الصهيونية بانهـا حركـة ذاتيـة واستمرارية لطبيعة المشاعر اليهودية ان الاوروبيين هم الذين اوجدوا الحركة الصهيونية لـذا فان اوروبا لم تكن مجرد المهد الذي ولدت فيه الصهيونية وانما كانت المهد الذي لـولاه لمـا كان للحركة الصهيونية ان توجد([2]).

ان الانتقال بالمشروع الصهيوني من الساحة الاوروبية المسيحية الى الساحة الاوروبية اليهودية، كان واضحا وقد افصح هيرتزل في مؤتمر بال عام 1897 عن ذلك عندما قـال ان النداءات والدعوات الفكرية لتجميع اليهود لم تجد اذنا صاغية حتى بين اليهـود انفـسهم فـي الثلاثينات من القرن التاسع عشر ولكن في الستينات من نفس القرن تلقى نجاحا ومـن ابـرز الرواد لهذه الحركة ثلاثة يهود هم الكلعي و كاليشر وهس ثم جاء بنسكر متاخرا عـن هـذه المرحلة، كانت اهداف الصهيونية متوافقة مع الاستعمار البريطاني حتى انها اصبحت فرعـا لها، اصبح اشد انصار الصهيونية هم اولئك اليهود الذين يشغلون مناصب هامة فـي الـدوائر الحكومية في انجلترا([3]).

---

[1] عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الاجنبي في الوطن العربي المغرب العربي – فلسطين- الخليج العربي دراسـة مقارنـة، المعرفة، العدد 71،(الكويت،1983)، ص 101. وبناءا على ورود الشكاوى فيما يتعلق بأنشاء المستوطنات، أضطرت حكومة السلطان عبد الحميد الثاني في خريف عام 1892 إلى اتخاذ سلسلة من التدابير. اذ جرى التعميم على دوائر الطابو المحلية وعلى السكان بمنع كافة اليهود المحليين واليهود الاجانب من شراء الاموال غير المنقولة، وفي تلك السنوات أصـبح بيـع الاراضـي العثمانية إلى الأجانب يعتبر "خيانة للوطن وخيانة للدين تستوجب غضب ا وعقابه". لقد أصبح بيع الاراضي للاجانـب وقيـام الارساليات التبشيرية ببناء المدارس والمستشفيات أمورا تتطلب موافقة وإرادة خاصة من السلطان العثماني. أما بالنـسبة إلـى العرب الفلسطينيين المضطرين إلى بيع أراضيهم، فقد أبدى السلطان عبد الحميد الثاني استعداده واستعداد حكومته لـشراء تلـك الاراضي وضمها الى أموال الخزينة الخاصة. الوثيقة العثمانية (Y.PRK.AZS 27/39-1311-5-1) ، ص1.

[2] درويش، المصدر السابق، ص ص 221-235.

[3] التميمي، المصدر السابق، ص ص 87-92.

تراس بعض اليهود الدعوة الصهيونية وعبروا عن اهتمامهم بالعمل السياسي من اجل توطين اليهود في فلسطين وكان من هـؤلاء بنـسكر صـاحب كتـاب (التحريـر الـذاتي) وسمولينسكين وليلينبلوم وبن يهودا لقد تاثرهولاء بمذابح عام 1881 في روسيا فـدعوا الـى وسط الى احياء القومية اليهودية واقامة دولة يهودية والهجرة الى فلسطين.وفي هذه المرحلـة بالذات وفي اثر المذابح القيصرية ضد اليهود في روسيا ابتدات الهجرة الجماعية الاولى الـى فلسطين وهي الهجرة التي كانت الشعارات الدينية عنوانا لها والفقر و الاضطهاد من مبرراتها ومن ابرز نتائج الهجرة من روسيا ان اليهود توجهوا في اغلبيتهم الى الولايات المتحدة وكذلك الى فلسطين فكانوا في الولايات المتحدة نواة الجالية اليهودية الضخمة وكانوا في فلسطين نواة الصهيونية وكان شبح الاضطهاد الذريعة الكبرى للهجرة الصهيونية نحو فلسطين لذلك اصبح من هموم الدعاية الصهيونية التركيز على سيرة الاضطهاد وارتفعت الهجرة الصهيونية الـى الولايات المتحدة في اواخرالقرن التاسع عشر([1]).

في عام 1882، هاجر عدد من اليهود الروس الى فلسطين ولكـن بـسبب صـعوبة العيش فيها وصعوبة التاقلم وقلة الخبرة الزراعية عاد بعض المستوطنين الى روسيا القيصرية وذهب قسم منهم الى الولايات المتحدة بلغ عدد اليهود الروس الذين هاجروا الـى الولايـات المتحدة مابين (1820-1870) حوالي 7,500 واستمر هذا العدد بالارتفـاع خـلال العقـود التالية([2]).

في عام 1864تم تأسيس جمعية استعمار أرض اسرائيل بالتعـاون مـع (الإليـانس الإسرائيلي العالمي) من قبل الحاخام هيرش وتقوم هذه الجمعية على اسس دينية علمية، وسبق لهيرش ان توسط لدى السلطان لاطلاق سراح 400 مهاجر يهودي دخلوا الاراضي الفلسطينية بطريقة غير شرعية. وفي عام 1870وقد أقامت هذه الجمعية أول مدرسة زراعيـة يهوديـة قرب يافا تدعى (مدرسة نيتر) وتقوم على اراضي قرية يازور العربية([3]) وهـي اول تجربـة لليهود مع الأرض الزراعية حين اقاموا مستوطنة ابتاح تكفا، في اراضي قرية ملبس العربيـة قرب يافا اي مفتاح الامل، الا انها لم يكتب لها النجاح، فاعيد بناؤها عام 1883 مـع قـدوم مهاجري الوجبه الاولى الى فلسطين من اليهود([4]). وفي عام 1882 قام إدموند روتشيلد وهو من اشهر الممؤلين اليهود بتاسيس (منظمة الاستعمار اليهودي) بهدف تقديم الاموال لليهود وتم انشاء عدد كبير من المستوطنات في فلسطين، وتم الاعلان عـن هـذه المنظمـة فـي عـام

---

[1] محمود، المصدر السابق، ص ص77-97.

[2] بلغ عدد اليهود الـروس الـذين هـاجروا الـى الولايـات المتحـدة مـابين العـامين 1880-1914حوالي،مليـون نـسمة J.Parkes,Ahistory of the jewish people,(London,1964),p169

[3] درويش، المصدر السابق، ص ص228-229.

[4] التميمي، المصدر السابق، ص ص 97-98.

1900([1]). وحتى عام 1903 بلغ عدد المهاجرين اليهود حوالي 25-30 ألف مهاجر، واهـم المستوطنات التي انشئيت في هذه الفترة ريشون ليستون (الأولى لصهيون)، وروش بينا (رأس الزاوية)، وزخرون يعقوب (تخليداً لذكرى والد روتشيلد)، ونيس تسيونة (رايـة صـهيون)، وغيرها من المستوطنات، وكان روتشيلد يمؤل هذه المستوطنات، فضلاً عن المساعدات التـي كانت تتلاقاها من منظمة الاستعمار اليهودي بفلسطين. وقد نجح هولاء المـستوطنين خـلال عقدين من الزمن من انشاء 22 مستوطنة بلغت مساحتها حوالي 275 ألـف دونـم وقاربـت تكاليفها مليوني جنية استرليني. أما الهجرة اليهودية خلال الفترة الممتدة بين عـامي (1904-1914)، فقد كانت بعد قيام المنظمة الصهيونية العالمية وإشرافها على الهجرة والاستيطان في فلسطين، وبلغ عدد المهاجرين فيها نحو اربعين الفاً جاء معظمهـم مـن روسـيا القيـصرية ورومانيا وكانوا أساسا من الشباب المفلسين المغامرين الذين جندتهم الـصهيونية والأجهـزة البريطانية([2]). الاستعمارية ووصل كذلك الى فلسطين بين عامي 1911-1912 نحـو 1,500 يهودي يمني وزعوا على المستعمرات الزراعية الصهيونية. وقد ارتبط بهذه الهجـرة شـعار العمل العبري, ونشات معها المستعمرات الجماعية (الكيبوتس) والتعاونية (الموشـافاه), ففـي أعقاب تعثر المحاولات الاستيطانية الأولى التي قامت على أساس الملكية الخاصـة والعمـل المأجور, وجدت الحركة الصهيونية ومن يقفون وراءها أن تحقيق المشروع الصهيوني يقتضي إيجاد نوع من الإشراف المركزي الصارم على حركة الاستيطان, وتقييد حريـة المهـاجرين, وعدم إتاحة الفرصة لهم لامتلاك وسائل الإنتاج والمساكن او امتلاك ما يمكنهم امتلاكـه مـن ممتلكات من ترك فلسطين واختار العودة الى بلاده الأصلية. وعلى هذا الأساس ظهرت فكرة المزارع الجماعية والعمل العبري لتكون القيد المطلوب لإحكـام قبـضة الـصهيونية علـى المهاجرين من جهة, ولوضع الاسس لفكرة إخراج العرب من العمل في الاراضي التي تنتقـل ملكيتها الى المؤسسات الصهيونية من جهة أخرى. وقد وجـدت الحركـة الـصهيونية فـي مهاجري الهجرة الثانية المادة البشرية المناسبة لمثل هذا النوع من الاستيطان([3]).

وفي عام 1908 أنشات المنظمة الصهيونية مكتب فلسطين ليتولى مسؤلية الاشـراف على المستوطنات الزراعية، ويقوم بتقديم الخدمات للمهاجرين الجدد والمستوطنين، والمساعدة في شراء الاراضي واستصلاحها([4]).

ومع نهاية موجة الهجرة بسبب قيام الحرب العالمية الأولى 1914 وصل عدد اليهـود في فلسطين الى حوالي 85 الف يهودي, ووصلت مساحة الأراضـي التـي يملكونهـا الـى

[1] عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،ج2،(القاهرة، " د- ت")، ص 993.

[2] محمود، المصدر السابق، ص ص 185-187.

[3] اجود عودة، الهجرة اليهودية الى فلسطين قبل عام 1948، مجلة لسان العرب، 17/ ايار 2007، ص ص 3 -7.

[4] محمود، المصدر السابق، ص ص 185-187.

420,600 دونم، وأصبح لديهم نحو 47 مستعمرة زراعية([1]). وقد توقفت الهجرة الـصهيونية الى فلسطين في سنوات الحرب العالمية الأولى, وتوقـف النـشاط الاسـتيطاني الـصهيوني, وتناقص عدد اليهود في فلسطين، فبلغ في 1918 نحو 55 الفا بسبب خروج من كانوا يحتمون منهم بنظام الامتيازات الاجنبية مع من خرج من الاجانب أثناء الحرب ([2]).

2- دور بريطانيا في انشاء وطن قومي لليهود:

نشر في عام 1800 كتاب لجميس بتشيمو تحت عنوان (إرجاع اليهود- أزمة جميـع الامم)، اذ طالب فيه الكاتب الحكومة البريطانية باستخدام نفوذها لدى الدولة العثمانية، من اجل تخلي العثمانين عن فلسطين([3]). لذلك عقد اجتماع يهودي في بريطانيا برئاسة حاخـام لنـدن موسى مونتفيوري، تم فيه جمع 130 ألف جنية استرليني من اجل تنفيذ مشروع عودة اليهود الى فلسطين إلا أن المشروع قوبل بالرفض([4]).

وعندما تولى اللورد بالمرستون وزارة الخارجية البريطانية عام 1830 اول مرة كان ضعف الدولة العثمانية واضحاً لاسيما بعد سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام، لذا حـاول بالمرستون ان تبقى الدولة العثمانية كما هي في حين كانت روسيا القيصرية وفرنسا تتلهفـان على سقوط الدولة العثمانية املاً في الحصول على نصيبهما من تركة (الرجل المريض)، وقد ادركت بريطانيا أن وجود أقلية تعتمد عليها في بلاد الشام أمراً في غايـة الاهميـة بالنـسبة لمصالحها في تلك المنطقة، لاسيما وانها ليس لديها أقلية تعتمد عليها مثل فرنسا التـي تتمتـع بحماية الكاثوليك منذ عام1535 وروسيا القيصرية بحماية الارثذوكس منذ عـام 1774 فـي الدولة العثمانية. لذا كان بالمرستون وهو من أشد المتحمسين لهجرة اليهـود وتـوطينهم فـي فلسطين يبحث عن من يحمي مصالح بريطانيا في المشرق العربي،فوجد ضالته فـي اليهـود وذلك بتأسيس كيان لهم في المستقبل([5]). لـذا بحـث بالمرسـتون الموضـوع مـع اللـورد شافتسبري([6]) الذي افصح عن مشروع كان قد اعده منذ زمن واطلع بالمرستون عليـه وهـو الاستيطان اليهودي في فلسطين وتكثيفه ولم ينجح مشروع شافتسبري لكن صاحبه لم يعـرف الياس وهو صاحب الجملة (فلسطين ارض بلا شعب الى شعب بلا ارض اي اليهود) وقد تبنى الصهاينة فيما بعد هذه الجملة واصبحت اول الشعارات لهم([7]). كان بالمرستون فـي مقدمـة

---

1 التميمي، المصدر السابق، ص 101.

2 المصدر نفسه، ص 89.

3 حلاق، المصدر السابق، ص 46.

4 درويش، المصدر السابق، ص 223.

5 محمود، المصدر السابق، ص ص 16-17.

6 وهو اللورد آشلي سابقاً، تربطه صلة قربى باللورد بالمرستون (زوج حماته)، كان من اشد المتحمسين لهجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين، ولعب دورا كبيرا في التاثير على افكار بالمرستون. وكان متاثراً بافكارجميس بتشيمو التي وردت في كتابه.

7